

يُنَازِعُ الْوَكَلَاءَ

لِصِفْوَةِ الْعَبَا

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بقلم

مصطفى الحسامي

أحد العلماء

وخطيب الحرم الزينبي

وتنبيه، طُبعت جمعية الهداية الإسلامية ببغداد من فضيلة
المؤلف كلمة في حضرة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأرسل لها صورة هذه الكلمة تقدمها الحضرات القراء مع زيادات
فيها تقبلها الله ورسوله منه آمين

غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٤ هجرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - هل يحب حضرة خاتم الأنبياء ﷺ

ولماذا يحب ؟

يا من تودد بجلال النعم ، إلى عباده الصالحين ، وخص
بالباهر مما له من كرم ، حضرات الخاصة من خاصته
الأكرمين ، يا من جبل قلوب ذوى الفضل على حب الكمال ،
حتى لا تستطيع الصبر عن الترامى إليه ، وطبع نفوس أهل
النبيل على عشق الجمال ، جمال الغرائز كحسن الخلق وما إليه ،
يا من وعدت - ووعدك حق خلفه مستحيل - أن تلحق
الناقص المحب بالكمل من الأحباب ، وأمرت العلماء أن
يبلغوا مثل ذلك الوعد النبيل ، لترفع بفضلك من يعمل
ليظفر بذلك الوعد العجيب ، إني أشهد قلبا ولسانا حتى يبدى
يومئذ به من شعرات ، أنك الخالق وحدك للعظماء وما لهم
من عظم ، وأنت أرسلت الرسل ورفعت بعضهم على بعض
درجات ، وجعلت حضرة خاتمهم سيد الخلق عربهم والعجم ،
يا رب كافته عنا فنا عن مكافأته عاجزون ، وكافؤ عن
الإنسانية كلها جميع الأنبياء ، وبالسعادة تفضل على تابعيهم

مقاتلهم فقراء ذليلون ، واحشرنا بمحض فضلك مع النبيين
والصديقين والشهداء

أما بعد ، فلعل العنوان المتقدم يبدو في أول النظر
مستذكرا ، فإن حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أمر مفروغ
منه ، ومن الطبيعيات عند كل ذى إنصاف من غير أتباعه
عليه الصلاة والسلام ، فكيف بأولئك الأنبياء الذين به
استحقوا لأن يكونوا خير أمة رآها هذا الوجود ويراها
الوجود الثاني الأبدى ، والذي دعاني لأن أجعل هذا
الموضوع موضع بحثي في كلمتي هذه أمران :

الامر الاول يتعلق بغير المؤمنين به صلى الله عليه وسلم ،
والامر الثاني يتعلق بأولئك المؤمنين زادهم الله إيمانا وهدى
أما الامر الاول : فهو رجائي أن يقع ما أكتب في
نفوس أولئك الناس موقع قبول - باعتباره حكما تاريخيا
صادقا - فيبادروا إلى محبة حضرته صلى الله عليه وسلم
والإيمان به ، فأكون أنا بما أكتب سببا في إخراج بعض
عباد الله من شقاء لا آخر له إلى نعيم غير محدود ، وذلك - في
رجل واحد - خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ، فكيف
إذا كثروا ، وهؤلاء الناس الأجانب لم يقرءوا عنه صلى الله
عليه وسلم إلا ما كتبه رجال دينهم ومن إليهم من الكتاب
المغرورين بهم ، ومعروف مبلغ تعصب أولئك الرجال وأولئك

الكتاب ، ذلك التعصب الذي جعلهم يذلمونه صلى الله عليه وسلم في كتاباتهم بمثل تفزع له القلوب وتفر منه الانسانية -
فرارا

وأقل ما يكون من الاجنبى إذا رأى ما أكتب أن يرتبك في شأنه صلى الله عليه وسلم لما يقرأ من حقيقة تفارق ما في نفسه كل المفارقة ، وهذا يدعو بلا شك إلى أن يراجع الموضوع مراجعة الباحث المحقق الذي يريد - بحمد - أن يستخلص الحق من هذا التناقض ، وهو إذا بحث ذلك البحث خرج منه بنتيجة لا يمكنه معها إلا أن يتراعى بكلمه في أحضان الاسلام . وتلك النتيجة هي تبينه أن رجال دينه كانوا يفترون عليه صلى الله عليه وسلم افتراء ظاهرا تعمدوا غاية الظهور .

وهذا البحث الحر المنصف المقصود منه تعرف الحق في شأن هذا الرسول الكريم - هو ما أدعو إليه كل منابذ لهذا الرسول الحكيم بعيد عن دينه النور الوهاج ، أدعو هذه الدعوة وأنت واثق الثقة كلما أنهم لو سمعوا دعوتى هذه لسارعوا - بلا استثناء واحد منهم - إلى اتباعه صلى الله عليه وسلم وسلوك سبيله الزير المستقيم ، أنا أدعو هذه الدعوة وقلبي كالجبل رسوخا في أن من استجاب لى سيكون فى جانبي بلا أى جدال ، وهذا شأن كل من يدعو إلى حق ، فإنه يعرف .

فإن البصائر إذا لمحت المحزنات إليه مرلية عن باطنها في أسف
عظيم على أيام مضت وهي مغرورة به ، فإن النفوس
الفاضلة لا تنمى على الباطل أبداً بعد تبيينه ، إذ أن
نتيجة التماهى الشقاء الأبدى ، وأنا لا أظن عاقلاً يرضى لنفسه
شقاء لحظة فضلاً عن شقاء لا آخر له في نار لا يعلم قدر شدة
ألمها إلا الله ، لا يزدون فيها إلا عذاباً ، ولا ينتهى لهم فيها ، ولا
هى تنتهى إلى أمد ، إن الناس هنا إذا أحسوا أن سينزل بهم
أى مؤلم طار النوم من أعينهم ، وغشيتهم من الهم ما غشيتهم
وشرعوا هم وكل من يلوذ بهم فى عمل كل ما يحفظهم ويندو
عنهم ذلك المؤلم الحقيق ، وإذا كان ذلك فعل العقلاء فى هذه
المدار الآلام قد لا تنزل ، وإن نزلت فإنها لا تلبث أن تنزاح
وتزول ، فكيف ينبغي أن يكون اهتمام العاقل بألم شدته فوق
تصور العقول ، ومع ذلك لا آخر له ، إني لهذا أشفق كل
الشفقة على أولئك الاخوان الأجانب وأرجوهم الرجاء كله
أن يعنوا بقراءة هذا الموضوع قراءة دقيقة ويعملوا
ما استطاعوا فى الوصول إلى الحق فى هذه المسألة التى ليس
للإنسان مسألة أهم منها ولا أدق

وأما الأمر الثانى فإن يحبه المؤمنون به صلى الله عليه وسلم
الحب الذى يكرنون على بصيرة فيه عليه الصلاة والسلام ، وهم
لا يحبونه ذلك الحب إلا إذا عرفوا قدره تمام المعرفة بحسب

قدرهم ، وذلك لا يكون إلا بالاطلاع على نحو ما سأكتبه إن شاء الله ، وأنا لا أريد المؤمن أن يحبه صلى الله عليه وسلم إلا على النحو المذكور فإنه حب يكون مبنيا على البراهين القاطعة ، وهو إذا كان كذلك أثمر ثمرتين جلياتين

الثمرة الأولى : رسوخه في دينه وعدم تزلزله بالمزاولات مهما اشتدت وعصفت زوابعها ، وإذن لا يكون المؤمن أمام الملحدين والمبشرين كالكرة يلعب بها الصبيان كما يشامون ؛ بل لا يرون منه إلا السخرية بهم والاحتقار والثناء لهم في مصيرهم الأبدى ، بل قد يعكس عليهم القضية ويصيدهم بدل أن يصيدوه

والثمرة الثانية : ما يورثه هذا الحب من قوة نور في البصيرة وشدة حرص على الاتباع واجتهاد في الخير يسمو بالعبد إلى درجات المقربين المحبوبين مولانا ومالك نواصينا ورب خرانا وأولانا

ولعل القارىء بعد هذا البيان استساغ العنوان الذى وضعته لهذه الكلمة ، وإذن أشرع فى بيان أنه صلى الله عليه وسلم يحب ولما ذا يحب ؟ فأقول :

٢- ماذا يفهم لقب رسول الله

من مقتضيات الحب المسلمة لدى الناس جميعا أن يصطفوا

المراء ويختاره ويحبه عظيم من الناس ، وكلما كانت درجة هذا العظيم أرفع كلما كان اقتضاء المحبة أشد ، وذلك أن النفوس تفهم أن العظيم لا يحب ويختار إلا من يستحق ذلك ، لأدبه السامى وفضله الكبير ومقامه الرفيع الممتاز ، ليكون بين المحب والمحجوب تناسب ، وإنى أرجو أن يعنى القارىء الكريم بامتحان هذا المعنى والتأكد من صدقه ، وذلك بأن يتبع من يصطفئهم العظماء المطهرون قلباً وقالباً ، ويتجسس على سيرهم الخاص وأدبهم مع الله ومع عباده ، أنا لا أشك فى أنه إن فعل ذلك لم يستفداً كثيراً استفاده مما نقول إلا أنه استفاده من طريق المباشرة والتجربة بعد أن كان ذلك عنده من درجة علم اليقين ، وإذا كان هذا من المسلمات ، فماذا يقول القارىء فى امرئ يحبه ربنا عالم الغيب والشهادة ، أيراه جديراً بأن يحب أم لا ، ولعله يبادر بقوله إنه جدير بالمحبة الكبرى وجدير ، فانا لا نتأخر عن محبة من يحبه عظيم من الناس كما قلنا — ولعل هذا العظيم غايط ومغرور ومحجوبه لا يستحق أن يحب ولكنه من أهل الاتقان الخلق التصنع والرياء فلا يعلم محبه ما وراء ظاهره ، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله . أما من أحبه واصطفاه من يستوى عنده الغيب والشهادة فلا احتمال أبداً لعدم استحقاقه المحبة ، هذا فى غاية الوضوح ، وإذن نقول : إن نبينا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم اصطفاه الله

واختاره من الخلق وأحبه ، وحبّه له ليس أى حب بل حبا به جعله رسولا عنه ، ومن المعلوم أن الرسول عنوان المرسل أى يقرأ منه حال المرسل ، وبه يحكم عليه ، فإذا كان جليلا دلت جلالته على أن مرسله جليل ، لأنه هو الذى اختاره وأرسله والعكس يفهم العكس بالضرورة ، وإذن حضرة نبينا صلى الله عليه وسلم يستحق المحبة الممتازة الفائقة لأن الذى اختاره لأن يكون رسولا عنه ربنا عالم الجهر والسر ، هذا معنى لا يختص به حضرة رسولنا صلى الله عليه وسلم بل كل رسل ربنا يشتركون فيه . ولذلك علمنا هو سبحانه وتعالى أن لا تفرق بين أحد من رسله فى الايمان بهم . وليعلم أن حب ربنا لاى تقى من عباده ليس كحبه للرسل عليهم الصلاة والسلام . فان التقى تقى عندنا بحسب الظاهر ، فحبّه تعالى له أمر ظنى . ومع ذلك توعد تعالى من يعاديه بالحرب ، أما حبه تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام فقطعى قام عليه البرهان القاطع ، وهو المعجزة التى يخلقها تعالى على يد الرسول يقول بها لآئمه آمنوا بهذا الذى يدعوكم إلى توحيدى وعبادتى فانه رسولى حقا ، ولذلك خلقت له هذه المعجزة التى تعجز العالم كله أن يفعل مثلها ، فالذى لا يحبه ولا يؤمن بأنه حبيب الله بعد هذه التزكية الالهية يكون مستخفا به تعالى وبتزكيته ، أو يكون مكذبا له فى شهادته تعالى

ربنا وتقدس ، ومنتهى الجرائم أن يتوجه مثل هذا الجرم إلى الله من عبد لم يخلق ولم يرزق ولم تصل إليه أى نعمة إلا من هذا الاله الذى يستخف بتزكياته ويكذبه حقت كلمته ، ولذلك كانت عقوبة من لا يحب الرسل الخلود السرمدى فى النار وهو منتهى العقوبات ليناسب منتهى الجرائم . ومن هذا البيان تستطيع أن تفهم أن حبه تعالى لعباده ليس فى درجة واحدة ، بل يتفاوت ، ولذلك جعل تعالى بعضه ظنيا وبعضه قطعيا كما عرفت . هذا القرآن يقول « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، ومنه تفهم التفاوت بين الرسل ، ويقول « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومنه تفهم التفاوت بين الصالحين ، وينبغى أن يعلم أن حب ربنا للعبد يكون بقدر ما عنده له من خشية وطاعة ، فكما كان أخشى لله وأطوع له كلما كان حبه له أقوى وآكد ، إذن نستطيع أن ننتقل من هذا إلى أن حب ربنا لنبيه صلى الله عليه وسلم وخاتم رسله أقوى وآكد من حبه لجميع الخلق بما فيهم رسله وملائكته لأنه صلى الله عليه وسلم أتقى الجميع وأخشاهم لربه . هذه حقيقة إجماعية ، ومنها تعلم أن حبنا له صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أسمى حب وأرفع منه حتى من حب لمرء نفسه وماله وأهله . وهذا الحب لا يكون محترما وله قيمته إلا إذا ترتبت عليه آثاره — من الغيرة عليه صلى الله عليه وسلم والغضب له أشد من الغيرة والغضب للنفس والمال والأهل ،

ومن الحب لما يحبه صلى الله عليه وسلم أكثر من محابه
النفس والأهل والولد فليعلم هذا حق العلم ، ولا يكتف
بمجرد الدعاوى اللسانية والهواجس النفسانية

وإني أراى توسطت بحرا خضما من مقتضيات حبه صلى
الله عليه وسلم لا شاطئ له . وإنى مقتصر من هذا — بعد
ما تقدم — على أثره صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى ربه وما
يلزمها من (ثبات وعلم وحلم وشجاعة وصدق وقوة بيان
وتواضع وزهد وعمل بما يدعو إليه) ، هى نقط عشرة يضاف
إليها النقطة الماضية أعرض لها إن شاء الله ، أبرهن بها على
أنه صلى الله عليه وسلم جدير بأن يحب الحب الذى لا يدانيه
حب ، وإنما لزمتم هذه الأمور التسعة الدعوة إلى الله لأن
الداعى يريد تحويل الناس عما اعتادوه إلى ما يدعو إليه .
وذلك فى منتهى الصعوبة على الناس . فإذا لم يكن الداعى
صبوراً جليداً ثابتاً على الدعوة حملة الضجر على مقاطعة الناس
وفراره منهم إلى غير تلاق ، وكيف يدعو هذا ، وإذا كان
جاهلاً لم يدر ما يقول يدعو به الناس ، وهذا هدم للدعوة
من أساسها ، وإذا لم يكن حليماً نفر الناس منه بسوء خلقه
وجعلهم يهربون منه هروبا ، وإذن لا يجد من يدعوهم ، وإذا
لم يكن شجاعاً لم يستطع أن يقف فى وجوه المبطلين بجاهرهم
بعد هم عن الحق ، وإذن لا يدعو ، وإذا كان كاذبا سقط من

النفوس واحتقره الناس ورأوه غير حقيق بأن يسمع له ، وكيف يسمع العقل قول الكاذب ، وإذا كان ضعيف البيان أضحك الناس منه وصرفهم عنه بجزءه أو تقصيره عن إفهامهم ما يريد ، وإذن من يدعو ، وإذا كان متكبراً استثقله الناس وصعب على أنفسهم الاجتماع به فلا يجد من يدعوهم ، وإذا كان حريصاً على الدنيا متكالباً عليها شكك الناس في إيمانه باليوم الآخر ، وكيف يقتدى بمن هذا حاله ، وإذا كان يدعو العباد إلى أمور ويفعل هو أموراً لا تتفق معها كان غير صالح للدعوة لأن المدعوين يرتكبون بين قوله وفعله قائلين في أنفسهم أى الأمرين أحق بالطاعة والامتثال ؟ وإنا نتكلم — إن شاء الله — على تلك الأمور العشرة واحداً واحداً على الترتيب السابق فنقول

٣ — أثر الدعوة

أما أن أثر الدعوة يحرض على حب الداعي إذا كان إيجابياً — فذلك ما نشاهده في أنفسنا ، فإن أحداً لو وقعت عينه على مرشد تسبب بإرشاده في هداية أحد المتمردين لأحبه ، وكان موضع الإعجاب عنده ، لما أنه نقل المتمردين زمرة جنود الشيطان إلى زمرة جنود الرحمن ، أو أنه بقوته الارشادية حول ذلك المتمردين من شبه شيطان إلى شبه ملاك

أو أنه وقف في ناحية — بتلك القوة الارشادية — ووقف
الشیطان وجنوده في ناحية بقوتهم الاغوائية وهو وهم
يتنازعون ذلك المتمرد ، وبعد قليل انكشف الغبار عن
انتصاره وهزيمة الشياطين أمامه ، تاركين غنيمتهم لا يلوون
على شيء ، وجدير والله بالحب من تنهزم أمامه الشياطين ،
ولعل حضرة القارىء لا يخالف في أن حبه لذلك المرشد
يزداد كلما ازداد المهتدون بارشاده ، وبقدر هذا الازدياد
يزداد المرشد في نفسه جلالة وعظما ، لما أنه لا يصل إلى أن
يهتدى على يده واحد إلا بعد أن يبذل من المجهودات
النصحية ما يبذل ، إذ أن ما عليه ذلك المتمرد — كان من عاداته
المستحكمة ، وتغيير العادات التي ذلك شأنها صعب وشديد ،
ولذلك يقولون في أمثالهم (قطع الورايد ولاقطع العوايد) ،
زد على هذا أن الاعوجاج هو النفس والاستقامة
مكروها ، ومن غير المفهوم أن تترك النفس هواها وتقبل
على مكروها ، وفوق هذا وذاك لشياطين الانس والجن
أحكام على المعوج في غاية الصرامة والشدة ، فمن أعجب
العجب حقا أن يتغلب المرشد على كل ذلك ويظفر بانقاذ
واحد يهتدى على يديه ، اجتمع مرشدان فقال أحدهما
للآخر ما أصعب هداية الغارين ، فانه لم يصلح على يدي من أول
عهدى بالارشاد إلا واحد ونصف (يريد بالنصف رجلا

لم يكمل في اهتدائه) فقال له صاحبه (أنا صلح على يدي
آلاف لا أحصيا) ؟ فعجب صديقه وقال كيف ذلك يا أخى
فكان جوابه أن قال (من لم يصلح للجنة يصلح للنار) فضحك
صاحبه وزاد استغرابه لكثرة من صلح على يديه ، إذا عرفت
هذا فقل لى كيف يكون حبك لحضرة نبينا صلى الله عليه وسلم
وقد هدى ربنا به لا واحداً ولا عشرة ولا مائة ولا ألفاً ولا
مئات الآلاف ولا مئات الملايين ، بل به هدى أمة بأسرها لم
يهتد من أمة قط كمن اهتدوا منها فقد ورد أن (أهل الجنة
عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الامة وأربعون من
سائر الامم) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان
والحاكم ، ولا تظن أن هداية هذه الامة كمداية غيرها ، لا
تظن هذا ، فإن هذه الامة يخبر كتابها أنها خير أمة رآها
الوجود ، أى أن أفرادها فى هدايتهم أجل وأعظم من أفراد غيرها
فى ذلك ، وإذن يصح أن نقول إن المهتدين به صلى الله عليه
وسلم أكثر من المهتدين من كل الأمم كما وكيفاً ، ومعنى
هذا أن جميع الأنبياء — وهم هداة الدنيا بأسرها — فى
ناحية ، وهو صلى الله عليه وسلم فى ناحية ، لا يكافئهم فقط ، بل
يرجح عليهم فى فضله الخاص به وفى آثار إرشاده المتعدى ،
وزد على هذا أن العين لم تر عالماً من هذه الامة تعجب من
سعة علمه والتفاف المؤمنين حوله ، واهتداه الضالين به إلا

والأصل في هدايته هذا النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وما
ينبغي مؤلف أنتج من المؤلفات الإسلامية ما أنتج مما امتلأت
به الدنيا هدى ونورا إلا وبه صلى الله عليه وسلم ألف ، وإلى الله
صلى الله عليه وسلم يرجع عليه ، وببركانه عليه الصلاة والسلام
وفق فيما كتب ، وما الآلاف والملايين من المجلدات العلمية
بالمكتاب الإسلامية في أنحاء المعمورة إلا من آثار علمه صلى الله
عليه وسلم ، ولك أن تجهر بأن كل الأمم الماضية لم تنجب من
العلماء النبلاء ما أنجبت هذه الأمة وحدها ، ومع هذه الكثرة
ترى العالم الواحد من علمائها فيملا عينك جمال مظهره ويفعم
قلبك السرور بسعة علمه ، ذلك أنك إذا لمستته تلمس منه شيئا
كما آتاه الله وأنعم به عليه تفجرت ينابيع ذلك العلم من قلبه
وجرت على لسانه تنهمر انهمارا حتى إنك لتوقن أن هذا وحده
يكفى الدنيا كلها لأن تستنير بنور علومه ، فإذا أحببت نفسك
أن تقف على شيء من خشيته لربه وحسن معاملته له عز وجل
تبدت لك فيه حقائق يعجز فصيح لسانك عن الإفصاح عنها
وبلغ قلمك عن بيانها كما ينبغي لها ، وإذن لا بد أن تقول في
نفسك إذا كان هذا أحد أتباعه صلى الله عليه وسلم فكيف كان
هو عليه الصلاة والسلام ، لتعلم أيها الأخ الممتليء تعظيما وإجلالا
العالم واحد عامل بعلمه من أمته صلى الله عليه وسلم أن
بالأرض لومئذ كلها بأمثال هذا العالم من بلغوا حد الكمال

في نظرك ما ساووا نبيا واحدا في فضله ، ومع ذلك كل حضرات
الانبياء لا يساوونه صلى الله عليه وسلم مجتمعين كما قلنا ذلك
سابقا ، هذا شيء نقوله نقرب لك قدره صلى الله عليه وسلم عند
ربه وقدره في نفسه ، تلك النفس التي أودع الله بها ما أودع
من كنوز الكمال في كل فرع من فروعها ، ولعلك بهذا البيان
يسهل عليك أن تفهم كيف انتقادت له الأمة العربية التي بينها
بعث وقد كانت في الدرجة الأولى في تشعب الالهوام وتباين
المشارب والألنفة والتيه والتمسك بما كانوا عليه من الاخلاق
والعادات . لما كانوا ينظرون عليه من اعتقاد أن الزرقاء لا تظل
وأن الغبراء لا تقل من يدانهم في فضلهم ومزاياهم التي كانوا
يمتازون بها عن سائر أهل الأرض ، نعم لقد كان هؤلاء العرب
(كالديناميت) الذي إن مس انفجر فلم يبق ولم يذر ،
وكانت قریش بين هؤلاء الناس بمنزلة القلب من البدن ، هكذا
كانوا ينظرون اليها الرجحان في أشخاصهم وسمو في أفكارهم وقدم
عهد في القيادة والسيادة وتغرد — مع ذلك — بجواريت
الله الحرام والتشرف بخدمته وبتلقى الحجيج الوافدين عليه من
كل صوب وحذب ، فانظر كيف يكون هؤلاء في العظمة عند
أنفسهم وانظر كيف يكون انقيادهم واتباعهم الانبياء المطلق
لواحد منهم بينهم ولد وتحت اسماعهم وأبصارهم نبت وترعرع
لقدنا وأوه صلى الله عليه وسلم بكل ما أمكن لهم من أنواع المناوأة

لا يوما ولا شهرا ولا سنة ولا عشر سنين بل ثلاث عشرة سنة ،
واخيرا صمموا على اغتياله بطريقة جهنمية في غاية الاحكام ،
فأخرجه ربه من بينهم ثم رجعهم اليهم فاتحا قاهرا ، في إمكانه
بسهولة أن يبيدهم جميعا لما هم عليه من كفر شنيع ولسالف
معاملتهم له عليه الصلاة والسلام ، لم يفعل ذلك صلى الله عليه
وسلم ، وكل الذى كان منه أن قال لهم — لما اجتمعوا حوله
يسمعون كلمته فيهم — (اذهبوا فأنتم الطلقاء) قارنوا هذا الكلام
الذى لا نظير له بما كان منهم من لؤم لا نظير له كان منهم له
ولأهله ولأتباعه ولكل من ينتمى اليه فرأوا نفسا ما هى كنفوس
البشر ولطفاً يصغر بجانبه كل لطف فلم يسمعهم الا أن يتسابقوا
إلى الدخول فى دينه أفواجا وتبعهم على ذلك العرب والعجم
تبعوا العرب ، وانتشرت انوار دينه فى أنحاء المعمورة فجأة كما
ينتشر نور السكرباء فى مدينة تحول اليها تيار ذلك النور بعد فتح
ينبوعه ، ولا زال ينتشر فى كل جهة وصلت اليها أخباره حتى
اليوم ، إن أولئك العرب الذين ذكرنا من صفاتهم ما ذكرنا لم
يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم أى إيمان ولم يحبوه أى محبة وإنما
آمنوا به إيمانا ملائ قلوبهم وتخلل شغافها فأحبوه حبا وصل
بهم إلى أن كانوا يفتدونهم بأموالهم وأولادهم وآبائهم وأرواحهم
مرتاحين لذلك كل الارتياح بل ومثلن الذين به لذة ملكتهم أبدانا
وقلوبا ، لا بل لم يقتصر حبهم على شخصه الكريم بل تعدى إلى

كل أثر من آثاره ﷺ ، فكانوا يأخذون عرقه ﷺ - وكان
أطيب من المسك - فيضعونه في أوعية يتدهنون به ويدهنون
به أبناءهم ، وكان ﷺ لا يتفل بينهم تفلّة فتسقط على الأرض
بل كانوا يتلقونها بأ كفهم يدلكون بها أبدانهم تبركا بها ، وما
توضأ أمامهم ونزل ماء وضوئه على الأرض بل كانت تمتد أيديهم
إلى ذلك الماء يتناهبونه ويمسحون به وجوههم وأجسامهم لأنه
مس بعض جسمه الشريف ﷺ فصار به من البركة
ما لا يعلم قدره إلا الله وهذا اللذان قبله في الصحيح ، بل شرب
بعضهم بوله ﷺ وعاد عليه من بركاته ما عاد ، لا بل شرب
آخر دمه عليه الصلاة والسلام وبشر بما ترقص له الأرواح
طربا ، وكلاهما ثابت أيضاً ، ولقد ظفر سيدنا خالد بن الوليد
رضي الله عنه بشعرات من شعر ناصيته ﷺ فوضعها في
قلنسوته فكان النصر حليفه أينما توجه ببركات تلك الشعرات ؛
وهو كالذي قبله ثبوتاً ، وليعلم إنى لا أذكر ما لا ثبوت له إن
شاء الله خرجته أم لم أخرجها ، وما إلى ذلك من الحوادث التي
تنطق بأعلى صوتها بأن حبهم لآثاره ﷺ بلغ المنتهى ، وأظنك
لا تردّد في أن هذا كله تابع لحبه ﷺ ، وإنى أرجو أن يعذر
القارئ الكريم أولئك الأصحاب الكرام في نحو ما حكينا عنهم ،
فانا اليوم إذا رأينا رجلا وقع في نفوسنا أنه من أولياء الله نلتف
حوله ونتراحم على التبرك به ، وتقيل يديه ، بل وقدميه ، والتمسح

بثيابه ، ونفعل معه فوق ذلك من أنواع الكرم ما يمكننا
ومن كبار السعداء في نظرنا من يتقدم إلى خدمته حتى ولو
بتقديم نعله اليه ، ونسافر الأيام والليالي لنزيره ، ولو أمكننا
أن نقضى كل حياتنا في التفانى في خدمته لكان ذلك منافع
الاغتياب الكثير والفرح العظيم ، ومع ذلك نعتقد أنامقصورون
في حقه لم نقم بكل ما يناسبه وينبغي له ، هذا فملنا مع من
يعرف بيننا بالدين القيم والسيرة الطيبة ، وليس ذلك بكثير
عليه لأنه من أحباب ربنا ، ولا ينبغي أبدا أن يعامل أحد أحباب
الله بأقل من هذا ، لأجل إرضاء مولانا الذى ذلك الولي محبوبه ،
نعم نفعل ذلك لعله تعالى يحبنا لحبنا حبيبه ، فان المعروف
المسلم أن محب المحبوب محبوب ، ودرجة محبة الله للعبد درجة
من السمو بمكان عظيم ، فهل يصل المرء اليها دون أن يبرهن على
حبه لمولاه ، إذن ليس بغريب أبدا أن يحب الصحابة رسول
الله ﷺ وآثاره الحب الذى أشرنا إلى قدره ، فان أولياء العالم
الاسلامى من أول أن خلق الله الدنيا إلى أن تنتهى ، بل ومعهم
الانبياء والرسل والملائكة - كل هؤلاء ليسوا بالدرجة التى له
ﷺ عنده ، وإذا كان هذا قدره عليه الصلاة والسلام
فمذورون والله أصحابه ألف عذر فى وصولهم فى حبه إلى
القادر الذى أشرنا اليه ، وأحب أن يكون على بال القارى ،
الجليل أن أولئك الصحابة رضى الله عنهم كانوا عربا ، والعرب

معروف فيهم الذكاء المفرط الذي لا تخفى عليه الأمور مهما
دقت ، وأضف إلى ذلك نور الاسلام الذي زاد بصائرهم
ثقوباً ونفوذاً ، فلو لا أنهم رأوا فيه صلى الله عليه وسلم ما يستحق ما كانوا
يفعلون - ما عاملوه تلك المعاملة التي روينابعض ما يدل عليها ،
وإذن لا يخطر على بالك غير ما ذكرنا ما قد يتصوره الاغمار
فاسدو القلوب من أنهم رضى الله عنهم عاملوه بما هو فوق
مقامه ، ولو كان الامر كما يقولون ما أفرهم صلى الله عليه وسلم على ذلك
الغلو وهو منهى عنه ، على أنى أستطيع أن أقول إنهم رضى الله
عنهم كانوا يرون أنفسهم بعيدين عن كل ما يجب له من التوقير
والتكريم وهم يعاملونه تلك المعاملة ، وفي سيرتهم ما يدل على
ما نقول ، فإن بعضهم رأوه جديراً بأن يسجدوا له وهموا
بذلك مستشيرين فيه ، فأفهمهم عليه الصلاة والسلام أن
السيجود لا ينبغي له وإنما ينبغي لله وحده ؛ ومن فرط جلاله
صلى الله عليه وسلم في نفوسهم وقف أمامه صلى الله عليه وسلم أعرابي وهو يرتعد هيبه له
فخفف عنه صلى الله عليه وسلم ما كان يجد وأخبره أنه ابن امرأة من قريش
كانت تأكل القديد ، صلى الله عليه وسلم ما كان أعظم تواضعه وأشد رحمة
بأمته ، وما لأولئك العرب النبلاء لا يبلغون في حبه صلى الله عليه وسلم
وتعظيمه المنتهى وهو في كل كمال يليق بالمخلوق اليه المنتهى ، يرون
ذلك بأعينهم لا يخبرهم به مخبر ، وهكذا والله يجب أن يكون مرشد
الناس فإنه دائماً موضع أسماهم ومطمح أبصارهم ؛ فإذا سمعوا

منه أو رأوا ما ينافي الكمال سامت عقيدتهم فيه وقل نفعهم به . .
وإن لم يجاهروه بالاعتراض عليه أضمرُوا له ذلك ، وكيف ينفع
المرشد تو ما في قلوبهم ما فيها من انتقاده والاعتراض عليه ، أما إذا
كان بعيدا عن النقد بما هو عليه من كمال أعجب الأبصار وأحبته
القلوب ؛ ومتى أحبته القلوب كانت في تلف لسماع كلمة من
محبوبها ؛ فاذا ما وصلت إليها أودعتها الصميم منها ؛ ولعلها
لا تسمح أبدا أن تفرط فيها وقد وصلت إليها من حبيبها ، وكما
كان المرشداً كمال كان أحب وكان النفع به أكثر ، ولذلك كان
بعض كبار المتقدمين من علماء هذه الأمة يدعو ربه دائماً وهو
في زمن الطلب أن لا يريه في شيخه نقصاً ، كان يدعوهم هذه
الدعوة ليدوم حبه الكامل لاستاذده فيدوم له نفعه الكامل منه ؛
وبهذا يوشك أن يكون عالماً من كبار العلماء ، وقد كان له ذلك
وملاؤه الله بعلمه الدنيا رضى الله عنه ، وأظنك من هذا فهمت
السرا الذي من أجله كان الصحابة بحار علوم ، فإن رسول الله ﷺ
كان أكمل الداعين إلى الله من غير شك ، وكان أعلم المعلمين
على الإطلاق ، فكان حب أصحابه له أكمل حب ، فكان نفعهم
به أكمل نفع ؛ وانظر أنت إذا كان هذا نفعهم كان بأي قدر
علمهم ؛ إن هذا يدل على أن علمهم كان عظيماً وعظيماً ؛ بل كان
لا يوازيه علم في أمة من الأمم كما قدمنا ذلك ، وعلم هذا قدره
لا بد أن يستتبع أثره وهو العمل به ؛ إذن كانت عملهم بالعلم

أكمل عمل يصدر من أمة ؛ ولهذا السر كانوا خير أمة أخرجت للناس أى فى علمهم وعملهم ، وإذن لا بد أن يكونوا أرفع الأمم درجات يوم القيامة فى دار الكرامة وهو مما لا خلاف فيه .

ولا يظن القارىء أنه ﷺ بانتقاله الى الرفيق الأعلى فقد صفة التعليم فلا يكون أحد بعده له صفة الأخذ عنه ﷺ — لا يظن أحد هذا فان كتابه الذى كان يعلمه بين أيدينا ، وكذلك سنته عليه الصلاة والسلام التى بينت ذلك الكتاب ، وإذن كل فرد من أفراد من يعانرون تعلم الكتاب والسنة منا وممن يأتون بعدنا وممن سبقونا يختلفون فى استفادتهم منهما باختلاف حبهم له ﷺ ، فكما كان المنعم أشد حبا له ﷺ كان أكثر علما من الذى يقل عنه فى ذلك الحب ، والعمل تابع للعلم ، والنتيجة اللازمة لهذا أنه ليس لنا عالم فى هذه الأمة وصل اليه خير من علم أو عمل إلا ومن طريقه ﷺ ربوا سطنه وصل اليه ، فهو ﷺ أستاذ جميع العلماء ومرشدهم ومعلمهم ، ولولاه ما وصل إلى أحد شئ لا من علم ولا من عمل بل ولا وصل اليه ذرة من إيمان ، فانه ﷺ القاسم لما يفيض ربنا على عباده من نعم ، ومعنى هذا أنه لم يسعد أحد فى دنياه ولا فى أخراه إلا وبه صلى الله عليه وسلم سدد ، ليعلم هذا حضرات إخواننا المؤمنين ليعرفوا مبالغ فضله ﷺ عليهم ، والمعروف فيهم أن أحدهم يحقن مرقب العاجز عن مكافأة من يسدى إليه أى معروف

ويكثر من الدماء له ومن عبارات الثناء عليه ، والشكر له ، ويجد نفسه مرغماً على حبه وعلى الميل إليه والوقوف في صفه إن كان في سراء أو في ضراء ، وكلما تذكر ذلك المعروف كلما وجد نفسه بعيداً عن مقام المكافأة ، وغير بعيد أن يعفو ويصفح عنه إذا أساء اليه بعد ذلك ؛ ولا يجزو على مكافأته على الإساءة ، ولعل هذا وجه من بعد الاحسان نوعاً من الاسترقاق ، وإذا كان هذا حالنا مع من عمل معنا شيئاً من المعروف الذي لا يلبث أن ينقضي وتنقضي آثاره فإذا ينبغي إذن أن يكون عليه العاقل مع من غمره في الدنيا والآخرة باحسانه بحيث لا يجد نفسه في خير دينوى أو أخروى إلا وهن يده تسلمه وبفضله وصل إليه وبسيئه تمتع به ، أنا لا أدري ماذا أقول فيما ينبغي أن يكون عليه المؤمن معه ﷺ ، إن من يقتل وتذهب حياته في سبيل الدفاع عنه ﷺ لا يمكن أبداً أن يؤدي كل حقه عليه ، ولو دقق النظر هذا المقتول لرأى موته هذا من أياديه الضخمة ﷺ عليه ، فانه الشهادة التي ليس لنا مقام أرفع منها إلا مقام الصديقين والرسل ، وذلك في غاية الظهور ، لكن ليس معنى هذا إنكار أن هذا المقتول قام بأى مكافأة وإنما معناه أنه مع كونه فعل آخر ما يمكنه فعله في المكافأة لم يقم بكل المتجه عليه من حقه صلى الله عليه وسلم ، وقيامه هذا ببعض المتجه عليه جاب له مصالحة أبدية ليس في إمكان مخلوق تقديرها ، وعجيب

والله شأن النبي ﷺ في هذا ، إذا أراد أحد أن يكون له عنده ﷺ يد مهما ضخمت ولو كانت تقديم الحياة — تولى ربه عنه مكافأة صاحب اليد بما هو فوق يده ، لا نقول بتلايين المرات ولا بدشليوناتها ، وإنما بقدر لا يحصيه العد ولا يضبطه الحساب ، وأين من الباقي السرمدي — وهو فوق تصورات العقول — شيء ، فإن على كل حال ، ثم هو — مع كونه قانياً — منغص بأنواع المنغصات كالحياة التي ضربنا المثل بها ، هذا من خالقنا وهو لا نامعناه إرغام النفوس على حبه ﷺ إرغاما اختيارياً ، رحماً حملاً عفيفاً مرغوباً — على حبه ﷺ الحب الذي ينسى المرء معه نفسه وحياته وكل شيء يتصل به ويفنى في سبيل وداد والقيام بأنواع محبوباته ﷺ ، لقد عرف قدره حقاً ﷺ أناس من سلفنا كنت بيننا أنت تتكلم مع أحدهم وهو مقبل عليك إذ تراه فجأة تغير وجهه وانتفض وأصبح في حال لا يصلح معه السماع حديث ولا لاقبال على مخلوق ، فإذا سألت ماذا جرى حتى أحدث ذلك في صاحبك أجبت بأن النبي ﷺ ذكر وسمع هذا الصاحب ذكره ، ولقد لسعت العقرب بعضهم رضى الله عنهم ست عشرة مرة وهو يقرأ حديثه ﷺ فصار يتلوى ويتلون وجهه ولم يجرؤ أن يقطع كلامه ﷺ ويشغل بالبحث عنها وإزالتها عن نفسه ، إن هؤلاء من غير أصحابه ﷺ ، وأما أصحابه فقد عرفت مما تقدم شيئاً من آثار حبه له عليه الصلاة

والسلام ، وخلاصة القول أن حبه ﷺ ميدان يتسابق فيه
أفراد أمته أوائل وأواخر كل يحبه على قدر معرفته به وبما
أودع ربه فيه من كمال

٤ - الثبات على المبدأ

نحن اليوم نحب الرجل الذي يتصدر للقيادة والارشاد اذا
رأيناه ثابتا على المبدأ الذي يدعونا اليه ، فان هذا الثبات يفهمنا
منه أنه مخلص لمبادئه جاد في الدعوة اليه ليس بهازل ، لم يقل
إلا ما يعتقده أنه جدير بأن يدعى اليه ، اما إذا دعا اليوم
الى غير ما كان يدعو اليه أمس ، ودعا غدا إلى غير ما كان يدعو
اليه اليوم - فهذا يسقطه عندنا ويجعلنا نعتقد أنه مذبذب صاحب
هوى يتلون بألوان أهوائه ، وحضرة نبينا ﷺ كان في هذه
الخلق بالدرجة التي لا يلحقه فيها لاحق ، فلقد دعا قومه إلى
التوحيد ونبذ ما هم عليه من وثنية ولاقى في سبيل هذه الدعوة
مالاقي من الأهوال وما ثناه ذلك عن موقفه قيد شعرة ، ولقد
عاهدت قريش بعضها بعضا على مقاطعة أهله ﷺ ومن
ينتمى اليهم ، ونفذوا هذه المعاهدة بكل دقة ، وكانت تقتضى أنهم
لا يبايعونهم ولا يناكحونهم ولا يجالسونهم ولا يحادثونهم ولا
يصالحونهم أبدا ولا تأخذهم بهم رافة ، أحداث هذه المعاملة
شدة في العيش على هذه الأسرة التي لا تسامها في الدنيا أسرة

حتى وصلوا لدرجة أنهم كانوا يأكلون ورق الشجر إحياء
 لمهجهم ، وكان يراد منهم بهذه المعاملة أن يسلموه صلى الله عليه وسلم
 لقريش تقتله ، فلم يسلموه ، ولم يغير هو صلى الله عليه وسلم من موقفه شيئاً
 لا قليلاً ولا كثيراً ، مع أن الموقف كان موقف موت له ولكل
 مناصريه ، وأهل من هذا ذهاب عظماء قريش لعنه أنى طالب
 وتوعدهم له بالحرب إن لم يكفه صلى الله عليه وسلم عن دعوته ، وكان من
 أثر هذا التهديد أن دعاه عمه وقال له (يا ابن أخي إن قومك
 قد جاءوني وقالوا لي كذا وكذا فأبق على وعلى نفسك ولا
 تحملني من الأمر مالا أطيق) وهذا معناه خذلان عمه له أمام
 أولئك الأعداء ، فإن اعترافه أمامه أنه لا يطيق حرب قريش
 يتضمن تركه له وتخليه عنه أن هو لم يكف ، وهذا معناه
 الموت المحقق ، وهل زلزله هذا التهديد البالغ النهاية في الشدة ؟
 وهل أضعف من عزيمته شيئاً ؟ إن خبر ذلك عند قوله رداً على
 عمه (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
 على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)
 ، معني هذا أنه استهان بالموت ولم يبال بخذلان نصيره الوحيد
 وصرح صلى الله عليه وسلم أنه لا يترك ما يهدده بالموت من أجله ، وسد
 عليهم باب الترغيب له لترك ما هو عليه ، فأقسم بالله ربه أنه
 لا يتركه ولو فعلوا معه من المرغبات مستحيلاً هو أن يضعوا
 الشمس في يمينه والقمر في يساره ، ثبات أين منه ثبات الرواسي ،

وعزيمة تتضاءل بجانبها عزيمة الدهر ، وما إلى هذا ينتهي ثباته ﷺ ، فقد تهادى على دعوته وزاد نشاطه فيها ثم زاد لحد أنه كان لا يتأخر عن إعلان الحروب على أعدائه إذا اقتضت الدعوة ذلك ، ولا يخفى أن الحروب لا يأمن فيها أحد من أحد المتحاربين أن يصاب إصابة قاضية على حياته ، فالذى يتعرض للموت من وقت لآخر حتى آخر حياته الدنيوية في سبيل دعوته دون أن تزعجه أهوال الحروب عن مبدئه قدر أصبح للوراء والدنيا كلها أعداؤه — صغير عليه أن يقال فيه انه يستحق فقط ان يحب ، ولا يؤاخذنا حضرة القارىء في تعبيرنا في هذا المقام بلفظ الثبات على المبدأ ، فانا اضطررنا إلى هذا التعبير اضطرارا تقريبا للمعنى المقصود إلى الأفهام بما اعتادته اليوم ، ولو أردنا أن نعبر التعبير الذى يساوى المعنى لقلنا إنه ﷺ أقيم من سيده ومولاه فى مركز فقام فيه كما أمر ولا إرادة له مع إرادة ربه ، وعلى العين والرأس ما يفعل المولى الحكيم العليم موت أو سواه نصر أو غيره

ه — العلم

ومن الصفات التى يحب المرشد من أجلها صفة العلم بما يدعو إليه علما لا يضيق عن حاجة المدعوين ، ولذلك نجد من أنفسنا الاجلال الكثير لمن نشعر منه بسعة الاطلاع

بحيث يروى بزال علمه كل من ورد حياضه في ظمأ إليها ،
وكلما رأينا بحر علمه أعمق بحيث لا يتكدر باختلاف دلائل
النازعين ممن حوله من العطاش كلما زدنا حبا له ، وما تفاوت
حب الناس للعلماء إلا لتفاوتهم في العلم ، وإن من مظاهر إجلال
العلم ما تراه في كل زمان من ملوك الدنيا مهما عظموا ، فإن
أحدهم إذا علم بذوى البراعة العلمية أدناهم ثم أدناهم حتى
يؤمّروهم على نفسه ، عن علمهم يأتي وعن علمهم يذرمعترا بهم
ونفورا حتى لا يتركوا بفعلهم هذا شكا في نفوس أممهم أن
العلماء ملوك الملوك ، وأولئك الملوك من رعاياهم ، وما ذلك
من الملوك إلا إستاد الأمر لأهله ، فإن العلم هو الأمير ، خصوصا
إذا دجت ظلمات المشكلات ، فانه لا يكشفها ويبدل ظلماتها
نورا غير أولئك البدور ، لا حرم الله الوجود منهم ، وإذا
كان هذا حبنا للعلماء لعلمهم فكيف ينبغي أن يكون حبنا
له ﷺ وعلم جميع العلماء من أول الدنيا إلى آخرها بل ومعهم
الأنبياء والرسل بل ومعهم الملائكة أجمعون — دون علمه
عليه الصلاة والسلام ، فإن من علومه ما أودعه له مولاه في
كتابه الذي يقول فيه (تبيان لكل شيء) (ما فرطنا في الكتاب
من شيء) وهذا الكتاب بلا شك فيه من العلوم كل ما كان بكل
الكتب السابقة لجميع الأنبياء صلى الله عليهم وسلم وزيادة ، فإن
ربنا يقول فيه (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)

ثم هو ﷺ أعلم من سيدنا آدم دون أدنى توقف وسيدنا آدم أعلم من جميع الملائكة بدليل قصته معهم ، ثم هو معروف أنه أرسل إلى الناس كافة وغيره من الأنبياء كان يرسل إلى قومه خاصة ، والتناسب في العلم بين الرسول والمرسل اليهم أول ما تنظر اليه الحكمة ، ولعل الأمر في علمه ﷺ يدنو إلى فهمك إذا سمعت أنه رقى المنبر يوما وهو غضبان من كثرة ما كانوا يسألونه وقال لجميع الحاضرين من أصحابه (لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به) وهو في الصحيح ، فانظر إلى قوله (شيء) وهو نكرة في سياق النفي ، فان المعروف في مثل هذه النكرة أنها تعم كل شيء ، وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى ، فبحال ان يقول ما ليس واقعاً ، والنتيجة لهذا فوق تصور المتصورين فيسهل معها اليقين بأن علمه ﷺ فوق علم كل العالمين ﷺ ، ولعله نظر إلى هذا من قال يخاطبه ﷺ — ومن علومك علم اللوح والقلم — وليس معنى قولنا (كل شيء) أن يفهم باطلاقة ، فان هذا هو علم الله وحده ولا يعلم أحد ما يعلم الله ، وإلا كان إلها آخر ، بل ولا يجوز أن تعقد نسبة بين علم الله وعلم مخلوق ، وكثير جداً لو قلنا أن علم العالم كله بالنسبة لعلمه تعالى كقطرة صغيرة من بحار الدنيا كلها أو كرملة من رمال جبال الدنيا جميعها ، ثم هو بعد ذلك علم ليس بذاتي وإنما منحه ربنا وخالقنا وخالق كل نعمة علينا ، فهو إذن على قلته — منه تعالى وإليه ، وأنت لا تخفى عليك أن العقل الذي يعقل

العلوم ويعيها منحة من منحه عز وجل ولو شاء لسلبها فنصبح
مثلنا مثل البهائم لانعى شيئاً ، وإنما المعنى كل شيء يسأل عنه
البشر ويليق بهم ويخطر ببالهم من معلومات الدنيا والآخرة
وفي الصحيح أنه ﷺ خطب يوماً كاملاً من صلاة الفجر
إلى صلاة المغرب لم يسكت في كل هذا الزمن إلا وقت صلاة
الظهر والعصر ، أخبر في هذه الخطبة بكل ما هو كائن إلى يوم
القيامة أى من الأمور الجسام التى تكون في هذه الأمة ، عرف
ذلك من عرفه ونسيه من نسيه ، والله أعلم بما يدخل من المغيبات
والعلوم في هذا الذى يكون إلى يوم القيامة ، وهذا كتاب ربنا
يقول (فأوحى إلى عبده ما أوحى) ، أليس معنى حضرة القارىء
في أن الذهن يقصر عن تصور ما تضمنه هذا الإلهام من العلوم
التي أوحاها ربنا إلى هذا العبد الذى لا عظمة في العبيد فوق
عظمته ﷺ ، وهذا فقط في مقام واحد في ليلة الاسراء فكيف
بما أوحاه تعالى إليه في غير هذه الليلة ، وهل يمكن أحداً أن
يحدد لى آيات ربنا الكبرى التي رآها ﷺ في تلك
الليلة ولم يزغ بصره ولم يطغ حين رؤيتها ، بل رآها حقاً كما هي
عليه ، وهل في إمكان أحد أن يشير لنا إشارة نفهم منها مبلغ
ما أطلعناه مولاه عليه حينما وصل تلك الليلة إلى المستوى الذى
سمع فيه صريف الأقلام - ومبلغ ما كشفه له عز وجل لما أطلعاه
على الجنة والنار ، ولما أن فضل ربنا عليه بهذا القدر فيما علمه له

من العلوم — امتن عليه تعالى بذلك وعظم من شأنه إذ يخاطبه في كتابه بقوله (وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وأى عظمة تدانى ما ذكرنا ، ومع ذلك كله قال له تعالى آمراً (وقل رب زدنى علما)

هذا أمر منه تعالى له ﷺ أن يطلب منه أن يزيده علما فوق ما علمه له ، وقد طلب ﷺ ذلك قطعا وأعطاه سبحانه وتعالى ما طلب ، فانه ليس بمفهوم أن يأمره ربنا أن يطلب منه كذا فاذا طلبه كأمره لا يعطيه له ، نعم ليس بمعقول هذا ، وإذن كيف كان علمه ﷺ والحال فيه ما ذكرنا ، الجواب أن من أعطاه هو وحده الذى يعلم ما إذا أعطاد ، وإذن ليفتنى حضرة انقارىء فى كيف ينبغي أن يكون حب أحدنا له ﷺ من هذه الناحية ناحية العلم ، أما أنا ففتواى أى عاجز العجز الكامل من أن أقدر ما يستحق ﷺ من الحب ، ومن استطاع تقدير ذلك فأمامه الميدان

٦ - الحلم

ومن الصفات التى نجل الإنسان من أجلها كل الاجلال أن نراه حليما واسع الصدر يقابل السيئه بالحسنة وتلتهب عليه نيران الغضب من مناوئيه فيفرغ عليهم — من زلال عفوه وصفحه ما يدعها وقد انطقت فى صدورهم ولم يبق منها أثر ، ويقلب

بوقاره وسعة صدره بغض المعتدين عليه حبا - وكدر نفوسهم صفاء ، وهذا الخلق يكون أجمل إذا تحلى به المرشدون الذين يعالجون إصلاح الناس ، فإن المرشد إذا كان حليما يغضى عن هفوات المسترشدين ويتحمل جهلهم وسفاههم ، وهم إذا عرفوا منه ذلك يجتمعون به ويلتفون حوله ، وبذلك يتمكن من نشر جواهر آدابه بينهم فيلتقطونها هادئين مطمئنين - ويخف عليهم - لذلك الحلم - أن يعاودوا مجلسه ثم يعاودوه ، وبهذا ينتفعون به وينتفع بهم ، أما ضيق الصدر فلا ينفع الناس أبدا ، لأنه بسمع كلمة لا تعجبه ممن حوله يهيج ويقوم ويقعد ويظهر من جفائه وغلظته ما يؤلم صاحب الكلمة ، فاذا رأى غيره ذلك هابه وجوز أن يلاقيه بما لاقى ذلك الغير

فاذا تذكر منه ذلك - بمقتضى طبعه الحديد وصدره الضيق - تفرق الناس من حوله ورأوا من الصواب أن يحافظوا على كرامتهم بالبعد عن هذا الذى يهددهم بسفه لا شئ سبب ، وهذا معناه عزل نفسه عن وظيفته وحرمان الناس من النفع به وحرمان نفسه من الانتفاع بهم ، وقد يوغر صدور الناس بما يسمعون من عنفه وشدته فيقضون عليه القضاء الأخير ليستريحوا من غلظته ، وهو الذى قتل نفسه بخلقه السيء ، إذا علمت أن الحلم بهذا الجمال وأن السفه بذلك القبح - فهمت بلا أدنى جدال أن ربنا الحكيم العليم لا يرسل إلى خلقه رسولا إلا وهو

ملبسه من الحلم أسبغ وأجمل لباس ، فان وظيفته — كداع
للناس إلى الله — تقتضى هذا الحلم ، وايس من المعقول أبدا أن
يرسل الله رسولا يكون بمقتضى طبعه معزولا عن أداء الرسالة ،
هذا نقوله فى أى رسول أرسله ربنا إلى الخلق ، فحظ الرسل
من هذا الجمال جمال الحلم أو فر جمال وأبهجه ، وانما خلقهم الله
تعالى هكذا ليقبل الخلق عليهم ويتبعوهم تقديرأ لهذا الجمال الذى
لا يعادله جمال ، وإنى أرجو القارىء ان يرجع إلى نفسه وينظر
ماذا ينطوى عليه من الحب لرجل عادى يرى عليه وقار الحلم
أمام رجل سفيه ، إنى موقن أنه يتمنى أن يحمله فوق رأسه
أو يضعه فى سويداء قلبه لو أمكن ذلك إجلالا له وتعظيما ، وإذا
كان ذلك حبك يا أخى لرجل حلیم عادى فكيف لو رأيت
الأنبياء وما طبعهم ربهم عليه من حلم لا يخطر بقلبك ما يدانيه ،
إنك لو رأيتهم لاندفعت فى تيار أصحابهم تفتديهم بروحك
وأهلك ومالك مأخوذا من نفسك بقوة ما تنطوى عليه من حبهم
عليهم الصلاة والسلام ، وإذا كان ذلك حالك مع أى رسول فكيف
يكون حبك لصفوتهم وسيدهم وسيد كل سيد فى هذا الوجود ،
إن وصفه ﷺ فقط بالحلم أحلى وألذ ما تسمعه الآذان وأبهج
ما تمتع به البصائر أبصارها ، فكيف لو رأتى مصداق هذا الوصف
، وان شئت فاسمع قطعة من حديث رواه البيهقى والطبرانى
وابن حبان والحاكم (يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجمل

عليه (الاحلما) هل سمعت الدنيا من أولها مثل هذا الوصف ؟
 إن الجواب سلب قطعاً ، ومن هذا الذى يجهل عليه الجاهل
 فيحلم عليه فاذا زاد فى جهله كان عنده من الحلم ما يكافئ
 تلك الزيادة فى الجهل وهكذا كلما اشتد الجهل اشتد الحلم ؛
 أن هذا معناه أن الاسماء انقلبت معه ﷺ من
 سبب غضب الى أن صارت سبب رضى ورحمة ولطف ، ومن
 هذا الذى لا يملكه كله حبه ﷺ ويدفعه دفعا إلى الايمان به
ﷺ وهو يرى نفسه كلما اشتد فى سفه عليه ﷺ كلما اشتد
 هو فى حلمه عليه ومقابله على جهله ووقاحته بالعفو الجميل والصفح
 المطلق الذى لا عتاب معه ولا تريب ، إن من لا يهيم بحبه
ﷺ ويبادر إلى الايمان به والحال ما ذكرناه صفوا فى القلب
 جلمودى الفهم لم يشم لمكارم الاخلاق رائحة ، ولذلك أنا أقول إن
 الكفار من أمته ﷺ لا يشبههم الكفار من أى أمة أخرى بل هم
 شر الكفار على الاطلاق - الا فرعون وقومه - لما أنهم كفروا
 وأسباب الايمان يرونها ساطعة سطوعا لا يدانى ولا يطاول
 ولا يمتري فيه أى عثر - كما أن المؤمنين به ﷺ لا يساويهم مؤمن
 من أى أمة ، لما أن الاسرار التى وصلت اليهم من معاشرته ﷺ
 لا تماثل - والخيرات التى عادت عليهم من العمل بدينه أكمل
 الاديان لا تقارب ، ثم إنه معروف بين الملوك أن الجرأة على
 شخص الملك أو الخروج عليه لاستلاب ملكه أو انتهاك حرمة

حرمة من الأمور التي لا جزاء لها إلا الإعدام بالتردد ، ولا
تتحمل قبول شفاعة أبدا ، فان ذلك عندهم منتهى الجرائم ، هذه
قاعدة الملوك لكن سيد الملوك وسيد أهل الدنيا والآخرة جميعا
هم كثير من الناس منفردين ومجتمعين أن يقتلوه ﷺ ، وقبض
عليهم وقدموا اليه ﷺ ليقتلهم ويجعلهم عبرة لغيرهم فوسعهم
حلمه ﷺ وعفا عنهم ولم يمسه أدنى أذى ؛ ولقد جرى له يوما
برجل وقيل له إنه أراد أن يقتلك فبادر ﷺ بتأمين الرجل
وإذهاب خوفه ومحو أى أثر للذعر من نفسه فاستقبله بقوله له
(ان ترع ان ترع) إن هذه والله النبوة حقا ، بل هي المثل الذي
لا يماثل بين الخلق في الحلم والرحمة ، وقد تقدم في هذه الكلمة
قوله ﷺ لقريش (اذهبوا فأنتم الطلقاء) قال ذلك بعد أن دخل
مكة فاتحا قاهرا مع أنهم مكثوا ثلاث عشرة سنة في حرص
عظيم على القضاء عليه ؛ وبيتوا للوصول إلى ذلك ما يبتغوا ولم
يصلوا إلى مقصودهم الذي كانوا متهاككين على تحقيقه ، إن عفوه
ﷺ عنهم بعد كل ذلك تعجز أفكارنا عن تصويره في باب الكرم
وأحدنا ليس يبعد عليه أن يريق دم من قال له كلمة لا ترضيه ، نعم
أقول كلمة ولا أقول مديده اليه ، أو رفع عليه عصاه ، أو مد إليه سلاحه
هذه ذنوب عندنا لا تسعها دائرة العفو ؛ أما الكلمة فنقوم لها
ونقعد ونقول للمتكلم بها جرحنا إحساسنا ؛ غيرت شعورنا ؛
أهنتنا ؛ وما إلى ذلك من الكلام الذي يدل على عجرفة وأنفة

لأحدها وتكون النتيجة ما قلنا أو قريبا مما قلنا ، أما العفو
المطلق فبعيد جدا وبعيد ؛ بل نحن لا نعرف هذا العفو . قدرت
قريش ذلك العفو حق قدره ؛ وفهموا أنه لا يكون أبدا من
إنسان عادي فدخلوا في دين الله أفراجا موقنين أنهم يؤمنون
برسول الله حقا كما أشرنا إلى ذلك سابقا ، ومن أراد أن يقارب
من تصور ما آتاه مولاه من حلم فليتبعه في كل غزواته
وينظر هل مديده إلى واحد من أعدائه وقتله ؛ ان المحفوظ عنه
ﷺ أنه ما فعل ذلك إلا برجل واحد ولم يمد يده إليه إلا بعد
أن رآه شادا عليه يهدير هدير الفحل يقول (لأنجرت إن نجا محمد)
هذا وحده الذي قتله ﷺ ، وما قتل غيره قط مع أنه نازل
أعداءه في غزوات كثيرة ، والمرء في الحروب يكون بحالة غير
عادية . حالة لو استطاع معها أن يحمده كل أعدائه حصدا في
لمحة ما حسن عنده أن يتأخر عن ذلك ، ولو تأخر كان موضع
اللوم القارس من نفسه ومن غيره ، لأن تأخره معناه تعريض
نفسه للقتل ، ويكون المرء في الحروب نارا ملتهبة لا تبقى ولا تذر إذا
علم أنه وحده المقصود لكل أعدائه كما هو الحال فيه ﷺ - وأن
كل من عاداه من أنصاره إنما يقصدون بالأيذاء من أجله ، أن ذلك
العفو منه ﷺ ينادى بصوت يسمعه أهل السموات والأرض
أنه والله رحمة الله تعالى للعالمين ، وهل في الدنيا ذر عقل يلومني
إذا قلت ان صغيرا عليه ﷺ - وهو كما نصف - أن نقول إنه

يستحق المحبة فإن هذه العبارة فيها ما فيها ، نعم والله ان نفسى
ترى أن عبارات التقدير له ﷺ عبارات ضيقة لا تفى أبداً
بتحديد حقيقته ﷺ

٧ - الشجاعة

ومن الاخلاق التى يحتاج إليها المرشد حاجة شديدة خلق
الشجاعة الذى عرفناه فى رسالتنا (شجاعة رسول الله ﷺ) بأنه
هو الاقدام تحت إشراف الحكمة للدفاع عن النفس أو أى
عزيز لديها ، وحاجة المرشد إلى هذا الخلق من ناحية أن وظيفته
مواجهة الناس بالإنبيى على ما يصلح شأنهم من لزوم صالح أو
مفارقة فاسد ، فإذا لم يكن شجاعاً مقداماً هاب أن ينه الناس
ذلك التنبيه وذلك ينافى الارشاد ويرأى على بنائه من أساسه
ولما كانت حضرة نبينا ﷺ سيد المرشدين وصفوة الدعاة
إلى الله كان سيد الشجعان ، ولقد أفردت هذا المعنى فيه ﷺ
برسالة خاصة سميتها بالاسم المذكور ، فمن أراد أن يشبع منه
فعليه بآلك الرسالة ، وحسب القارئ الكريم هنا ان يعلم أن
العرب الذين بينهم بعث ﷺ كانوا من الكبرياء والعظمة
بدرجة لا تسمح لهم أن يقبلوا أن يرشدهم مرشد لفهمهم فى
أنفسهم أنهم سادة المرشدين وأعلم العالمين وأفضل
الخلق أجمعين ، ومع ذلك صدع فيهم ﷺ بما أمر

ربه دون أى تهيب، وتمادى على ذلك حتى آخر
 نفس من أنفاسه الدنيوية ؛ ولا يظن القارىء أنه كان يتكلم
 معهم فى أمر هين سهل ؛ إنه كان يتكلم معهم فى دينهم الذى
 اختاروه لأنفسهم ؛ فأبان لهم أن اختيارهم اختيار غير صالح
 وأنهم بعيدون عن الحق بعد الظلمة من النور ؛ إذ أنهم بعيدون
 حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ولا تنطق ولا تتحرك
 ولا تنفع ولا تضر ؛ وهذه مغامرة ليس بعدها مغامرة ؛ فإنها
 تعرض للموت المحقق ؛ كيف لا وهى تطعن عليهم وترميهم
 بالبله الذى لا حد له ؛ وهم يعتقدون فى أنفسهم الذكاء الذى لا
 حد له ؛ تطورت حالة أولئك الناس الذين بلغوا فى العناد مبلغا
 يدهش ؛ وزاد حنقهم عليه ﷺ فأوا - وهم مغرورون
 بقيادتهم وسيادتهم - أن يناجزوه ﷺ الحرب ليرهبوه ويسكتوه
 عنهم أو يبيدوه أو أصحابه ويستريحوا منهم ؛ وهل هاله ذلك
 منهم وجعله يحجم عما هو عليه من الدعوة إلى مولاه ؛ ما كان
 ذلك، بل تقدم اليهم باعا لما رأهم تقدموا إليه أصعبا، رصدا أمامهم
 صمود الجبال الرواسى أمام الزوابع ثورا ثم تضمحل وتسكن
 كأن لم تكن ؛ ولا زال أمامهم كذلك حتى جاء يوم كانوا فيه
 جميعا عبيدا أرقاء فى يده وسيوف أصحابه مسلولة على رقابهم لو
 هوت ما بقى منهم واحد، ثم تفضل ﷺ كعادته فأعتقهم
 وعفا عنهم كما سبقت الإشارة إليه ، لم يقف ﷺ فى شجاعة

عند هذا الحد - فإنه مرسل إلى الناس كافة - بل أخذ يكاتب الملوئ والقيصر يدعوهم هم وقومهم إلى اتباعه ﷺ والايمن بأنه رسول الله وما رهب ملكا ولا قيصر ولا تردد في جهاد من لم يجب دعوته إلى أن وصل في هيئته بين الامم لدرجة تذر من يتوجه اليهم لجهادهم في انزعاج يهزمهم ويذهم وينه ﷺ مسيرة شهر كامل ؛ هذا ما وصل اليه بعد أن كان أمام الدنيا كلها وحده ؛ ايس بجانبه واحد يثنيه ؛ ولا زال ﷺ يجاهد أعداء دعوته ما فتر عن ذلك حتى لحق بالرفيق الاعلى ؛ وما حفظ عنه عدو ولا صديق نكسة واحدة إلى الورا في موقف من موافقه طول حياته الجهادية مهما كان الموقف رهيبا ؛ ولقد صرح الممازون بين أصحابه بالشجاعة - وكلمهم رضى الله عنهم بمازون - أنهم كانوا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقوا به ﷺ وجعلوه الحصن الذى يتحصنون به - وأن اشجعهم هو الذى يكون أقربهم منه ﷺ حينئذ ؛ ومن تتبع مواقفه ﷺ لا يتردد فى الحكم عليه ﷺ بأن هذا الوجود من أوله إلى أن ينتهى ما رأى ولن يرى من يدانيه ﷺ فى هذا الخلق خلق الشجاعة ؛ وإنى لأرى القارئ يتنفس تنفس المستريح المتشفى إذا رأى إنسانا تقدم إلى آخر فأخضعه بالقوة وخفف من شدته وكسر من حدته وألان من صعوبته بعد أن كان لا يطلق لجفاته وغلظته وعجرفته وإيذاته للخلق صغيرهم وكبيرهم

نعم يستريح كل منصف لهذا الذي كفى الناس شر هذا العنيد المتغطرس ويودون أن لو اكرموا به بكل ما يستطيعون من أنواع الاكرام حبالة وإكبارا ؛ لما أنه لم يتهيب ذلك الجاني المختال ؛ وإذا كان هذا حب الناس لمن تقدم - في جراءة - إلى واحد فقط من الناس فكيف يكون حبهم لمن وقف وحده أمام أهل الدنيا كلها ووصل مع أعدائه إلى ما ذكرنا سابقا ؛ أما أنا فلا ازال أقول إن صغيرا والله عليه أن يقال فيه إنه صلوات الله وسلامه عليه يستحق الحب وما قيمة هذه الكلمة فيه صلوات الله وسلامه عليه عدد وكيفما صلى وسلم ويصلى ويسلم عليه

٨ - الصدق

وما يازم المرشد لزوم أنغامه له صدقه في القول ؛ فان الناس إذا عرفوه بذلك وثقوا به وتلقوا كلامه بالقبول ؛ وعملوا به في طمأنينة ؛ أما إذا جربوا عليه الكذب فلا تسأل عما يضمرونه له من تحقير وأستصغار ، نعم يسقطونه من أنفسهم وينظرون إليه نظره إلى أدنى الناس وأحطهم ، ولو تكلم بينهم أعرضوا عنه وانزلوا كلامه معهم منزلة الهذيان الذي لا يسمع ، بل منزلة الفواحش الشنيعة التي يجب أن يحمى الناس أبصارهم أن تنظر اليها وأسماعهم أن تصغى لها ، وما رأيت عملا يسود الوجوه وينكس الرؤوس ويحقر صاحبه كهذا الكذب ،

والصدق لحضرات الانبياء الزم لانهم يحكون مايقولون عن رب العالمين ويتخذ الناس ما يقولونه ديناً يتدينون به فلو كذبوا - وحاشاهم - لكان كذبهم على الله السميع العليم وهو جراءة لاحد لها وعظيمة لبس فوقها عظيمة ، ثم مع هذا كان الناس يعبدون الله تعالى بالكذب ، ولذلك يجب أن ينزه الانبياء عن هذه الرذيلة ككل رذيلة لافرق بين واحد منهم وواحد : وسيد الانبياء وصفونهم حضرة نبينا ﷺ نشأ بين أولئك العرب عرفوه صغيرا وشابا وكهلا وما عرفوا عنه كلمة واحدة تخالف الواقع ، لذلك كانوا لا يرتابون أى ريب فى أى خبر يخبر به عليه الصلاة والسلام ، ذلك والله كان شأنهم معه صلى الله عليه وسلم وفى أنفسهم من البغض له ما فيها ، ولقد روى البخارى أن هرقل ملك الروم سأل سيدنا أبا سفيان رضى الله عنه قبل أن يسلم سؤالا من أسئلته المعروفة افظه (فهل كنتم تهملونه بالكذب قبل أن يقول ما قال (أى قبل أن يدعى النبوة) فكان الجواب (لا) ، وكان تعليق هرقل على هذا السؤال والجواب أن قال سيدنا أبى سفيان (وسألتك هل كنتم تهملونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت ان لا فقد أعرف انه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله) ، هذا اعتراف سيدنا أبى سفيان ، ومعروف ما كان عليه قبل الاسلام من شدة عداوته

له عليه الصلاة والسلام ، ولينظر القارىء كيف استنبط هرقل من جواب سيدنا أبى سفيان انه ليس من المعقول أن يتورع صلى الله عليه وسلم عن الكذب على الناس - وهم من الجهل بالدرجة التى يشتبه معها الصدق بالكذب والكذب بالصدق اشتباها قد لا يخرجون منه إلى تمييز أحدهما من الآخر - ومن العجز بالدرجة التى لا يستطيعون أن يعملوا معها للكاذب شيئاً من الضرر - ثم لا يتورع عن الكذب على الله عالم الغيب والشهادة الذى بيده الضر والنفع فى الدنيا والآخرة ، ما أبعد نظر هذا الرجل (هرقل) وما أدقه فى تحقيقه ، وروى البخارى أيضاً أن سيدنا سعد بن معاذ قال لأمية بن خلف من قصة (فانى سمعت محمداً ﷺ يزعم (أى يقول) أنه قاتلك قال إياى قال نعم قال والله ما يكذب محمد إذا حدث فرجع إلى امرأته فقال أما تعلين ما قال لى أخى اليربى قالت وما قال قال زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلى قالت فوالله ما يكذب محمد) هذا لفظ البخارى ومنه تعلم ما ينطوى عليه أعداؤه من عقيدة أنه صادق صدقاً لا يشك فيه ، حتى أن الرجل ليقسم بالله أنه لا يكذب إذا حدث وتحلف امرأته بالله على ذلك ، فيتفق رجالهم ونساؤهم على اعتقاد أنه لا يكذب ﷺ ، وقد قتله ﷺ - كما أخبر - بيد أصحابه فى

غزوة بدر، وروى عبد الرزاق وابن سعد والبيهقي أن أبي بن خلف لما طعنه النبي ﷺ يوم أحد وهون عليه أصحابه ما به منها قال يرد عليهم (لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم أليس قد قال أقتلك والله لو بصب على لقتلى) فهذا خبيث من أخبيث الكفار كان في حرص تام على أن يقتله ﷺ ولما طعنه تذكر وعيده ﷺ له بأنه يقتله ردا عليه في وعيده هوله ﷺ بالقتل ، فالرجل يرد على قومه لما هونوا عليه الطعنة وأفهموه أنها لا تقتله - بأنها لا بد أن تقتله لوجهين ذكرهما ، أحدهما أن ألما لذي يشعر به عظيم جدا لا يمكن أن لا يموت به بل هو يستصغر عليها أن تميته وحده ويقرر أن المهمـالو كان بجميع الناس لقتلهم وهو يعلم ذلك وهم لا يعلمون ، والثاني أنه ﷺ أخبر أنه يقتله وهو لا يكذب أبدا ، ويبالغ الرجل في صدقه ﷺ إلى حد أن أخبر أن خبره ﷺ لا بد أن يتحقق ولو لم يعمل ﷺ به شيئا قاتلا ولا مؤلما أي ألم وهو بصدقه عليه الصلاة والسلام عليه ، ولعل القارى يرى من هذا صورة من صدقه عليه الصلاة والسلام في نفوسهم إليها تنتهى الفخامة والعظمة ، وإذا كان هذا قدره في صدقه ﷺ عند أعدائه فهو عند أصحابه بالضرورة أفخم وأعظم ، ذلك ليس بمحتاج إلى بيان ؛ وإن شئت أن أزيدك على هذا حتى تقول حسبي حسبي فاسمع ربنا عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى

عليه خافية حيث يقول عنه ﷺ في هذا المعنى (وما ينطق
عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى) ، فهذا وحي إلهي قطعي
الدلالة قطعي الثبوت ينزهه ﷺ عن أن يكون له هوى وميل
يطيعه وعنه يتكلم : كالمعروف في الناس أن أحدهم إذا أحب
شيئا أكثر من ذكره ، ولا يذكره ويتكلم عنه إلا لماله في نفسه
من هوى وحب ؛ وبعد أن نزهه ربه هذا التنزيه قصر كل ما
ينطق به من كلام على الوحي الإلهي ؛ وهذا الوحي لا يكذب
أبدا لأنه عن رب العالمين المحيط علما بكل شيء والذي لا يدعوه
داع لأن يخبر خبرا يخالف الواقع ؛ إذن تكون النتيجة أن
الكذب محال عليه ﷺ وغير متصور ان يصدر منه أبدا ،
وانظر أنت كيف يكون حبك لأمريء تعهده فيه الصدق العادي
إنه والله حب عظيم يجعلك تضع مالك بين يديه يتصرف فيه
كما يشاء لأنك لا تشك في أنه يرده إليك قطعاً كما يقول وهو
صادق — ويجعلك تراه جميلاً جلالاً لا يقرب منه جمال فان
الصدق هكذا لا تماثل حاية ولا حلة — ويجعلك ترتقب نطقه
فلا يكاد يقول كلمة إلا وتبتدرها أذنك وعنها يتأقفا قلبك
بكل تلهف فيضعها منه في السويداء ؛ هذا حالك وهو حال
و حال كل الناس العقلاء مع ذوى الصدق العادي فقل لي إذن
كيف يكون حالك في حبك لذى الصدق الذي شرحناه
وهنا دقيقة أحب أن يلاحظها القارىء ، وهي أن المرء على

قدر شرفه بين العالم يكون صدقه وبعده عن الكذب ، وكلما كان الرجل أشرف يكون أبعد عن تلك الرذيلة ، يحافظ بذلك على شرفه ان يחדش ، ولقد صرح سيدنا أبو سفيان رضى الله عنه فى حديثه السابق مع هرقل أنه لم يمنعـه عن الكذب فى شأنه ﷺ أمام ذلك الملك الا محافظته على قدره بين الخلق وخوفه أن يحفظ عنه أنه صدر عنه كذب ، ومن هذا تفهم ان المرء إذا كان له مظهر عظمة بين الناس لا تسمح نفسه أن يهدم مجده ذلك بيده ولو كان من أهل الكفر ، وأولى برعاية هذا المعنى رجل مسلم له هذا الشرف ، فان اسلامه يدعوـه إلى عدم الكذب كـشرفه ، بل الاسلام داع أقوى ، لان الرجل المسلم يعلم من دينه أنه لا ينطق بكلمة إلا وهى تسجل عليه فى كتاب عمله وبها يؤخذ وعليها يحازى بما يلائمها من خير أو غيره — ويعلم كذلك ان مولاه بسمعه وهو يتكلم فيغضب ان كان ما يتكلم به كذبا ويرضى إن كان صدقا — ويعلم أن الكذب من بين المعاصى من الموبقات العظيمة ، وحسبه عظم بينها أن ربنا عده فى كتابه من المعاصى التى لا تليق إلا بالكفار ، ونزه المؤمنين به تعالى وبكتبه ورسله أن يكون ذلك الكذب من أخلاقهم ، ولذلك يقول هو تعالى فى ذلك الكتاب الكريم (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) ، ومن هذا المقام تفهم أن الكاذب يباشر عملا من أعمال

الكافرين ويترك العمل اللائق بالمومنين المناسب لإيمانهم وخشيتهم لمولاهم سبحانه، وهذا نقوله في أى كذب، فليسمع معه أناس يسمعون في الأرض فساداً بما ينقلونه عن الأبرياء لذوى المراكز الحكومية الذين يدهم تصريف شئون الأمم، أولئك الناس يعلمون حق العلم أن فى نقلهم الدواهي تنزل بالناس، ومع ذلك لا يتهيبون الاختلاق على عباد الله، ولعله لا يمر يوم إلا ولهم فيه بلايا وعظائم يرمون بها إخوانهم، وباليك تراهم عند ما يرون أخاهم وقد كبل بالحديد وأودع فى ظلمات السجون وترك حرمه وأولاده يتكففون الناس — وأهله وأحبابه فى حشرات عالية وآلام — وتركه هو والهموم تعمل فيه أعمالها ولا مجير ولا مغيث؛ وقليل ثم قليل من احترقوا حرفة النقل — من يعاف الكذب ويتحرى الصدق الذى لا نعهده من الفضائل فى هذا الباب؛ وإلما نعهده من الرذائل، ولعل القارىء يعجب ويقول كيف يكون صدقا ويكون من الرذائل؛ ليمون حضرته على نفسه ويعلم أن المغتاب لا يكون مغتابا إلا إذا كان صادقا، ومع ذلك معروف ما هى الغيبة قبحا فى دين الاسلام؛ وقل ذلك فى النميمة أيضا إذا كانت صدقا والنميمة قدرها فى باب ما يفضب الله قدر معروف محفوظ؛ وقد يستحق الصادق على صدقه ثمانين جلدة قد تعرضه للموت؛ وذلك إذا رمى مسلما أو مسلمة بالزنا، فإن ربنا عز وجل يقول

في مثله (هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذلم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) ، ففى حكم ربنا يكذب من يرمى المسلم بالزنا ولو كانوا ثلاثة من العدول بل ولو كانوا أربعة فيهم واحد فاسق : ذلك حكمهم وإن كانوا فى بعض الصور صادقين : وإنما كان ذلك حكم الله فى هذا الباب صونا لأعراض المؤمنين وبعدا بهم عن هذه الداهية التى تهدم البيوت الرفيعة ، وتسود الوجوه الوجيهة ، وتنكس الرؤوس العظيمة ، وتلزم الأسر المسلمة عازا يطول أجله ويطول ، يصحبه ذل أى ذل : وآلام أى آلام ، وكثيرا ما تفضى تلك الداهية إلى قتل الأبرياء من الرجال والنساء ، ولعل الأرض تضم بين جوانحها من أولئك الأبرياء من يعجز الحساب عن ضبطهم ، هذا مع قيام ذلك الحكم الإلهى ، فكيف يكون الحال لو كان التفوه بتلك البلية من المباحات ، إن الأمر إذن كان يكون فوضى لا يستطيع العقل أن يقدر مدى ضررها ، فكان كل امرئ فى نفسه شئ من أى واحد أو واحدة يرميه أو يرميها بتلك الفاحشة وإذن تمتد يد القتل إلى الشريكين ، وليس بعيد أن تتلو هذه اليد يد الانتقام من بلغ أو باشر القتل من الأهلين الغيورين

وقد يقابل الانتقام بمثله ، وهو كثير وكثير ، وليس وراء ذلك إلا خراب الوجود ، فليعلم هذا لتفهم الحكمة فى تشديد الأمر

في إثبات الزنا ، وإذن فليعذرني القارىء إذا سميت الصدق في
 النميمة بل في السعاية رذيلة ، وليعلم ان الانسان الذي نقصده بهذا
 الكلام قد يقول الكلمة فتكون في آن واحد غيبة ونميمة وبهتان
 وسعاية وكذب وفحشا ، أما أنها تكون غيبة فلائن الذي قيلت فيه
 يكرهها ولا يحب أن يقال فيه مع كونها صدقا ، فإذا كانت ليست
 كذلك فهي كذب وغيبة وبهتان ، وأما أنها تكون نميمة فلائها
 تكشف أمرا يكره إفشاؤه سواء كان الذي يكرهه المنقول عنه
 أو المنقول إليه أو أحد غيرهما ؛ وأما أنها تكون سعاية
 فلائها تنقل إلى من يستطيع إنزال الضرر في ظاهر
 الأمر ، وأما أنها تكون فحشا فلائها تكون مما لا ينبغي
 الجهر به صريحا ، وقد يكون في الكلمة غير ما نقول من المعاصي ،
 وإن اكتف بما ذكرنا ، ولنا نطلق الكلام في عدد نقل الكلام
 رذيلة فقد يكون من الواجبات كتنبيه من اتهم على قتله أو
 سرقة ماله أو هتك عرضه أو هدم بيته أو حرق متاعه وما إلى
 ذلك من المضار العظيمة ، مثل هذه الأحوال ينبغي تبليغها مع
 غاية الاحتراس ليحاط في التأهب لدفعها ، ولنعهد قائلين إذا
 كان المسلم يعلم في الكذب ما قلنا دعاه عليه هذا إلى تركه من
 غير شك بعداً بنفسه عما يعقبه من ضرر دنيوى وأخروى ،
 فيضاف احتراسه منه من هذا الوجه — إلى احتراسه من جهة
 أنه يخدش شرفه ويقلل من قيمته أو هو يمحوها محواً ؛ وكما

كان المسلم أرفع قدرا في دينه كلما كان أبعد عن هذا الكذب
نيحافظ على شرفه بين الخلق وعند الخالق سبحانه وتعالى ؛ وقد
يكون الموت أهون عند المسلم من النطق بكلمة الكذب ، لأنه
يعلم أنها تهوى به من مركزه عند ربه ، وهو حريص الحرص
كله على أن يرقى عنده ثم يرقى ؛ وأين حرص أرباب المراكز
الدنيوية عاينا - من حرص المؤمنين على مرا كزهم عند
ربهم ، وأين جزع أرباب المناصب إذا عزلوا من مناصبهم -
من آلام المؤمنين الأفاضل إذا أحسوا أن درجاتهم نقصت
عند مولا هم ومالك نواصيهم ، وأبن احتراس أصحاب تلك
الولايات وهاتيك الكراسي وشغلهم ليلا ونهارا على الاحتفاظ
بها - من احتراس عباد الله على درجاتهم التي رقا هم اليها ربهم
وتفانيهم في كل حركاتهم وسكناتهم في البعد عن كل مالمه
يسبب زحزتهم عن الخطوة عند مالك نواصيهم بتلك المقامات
الكريمة وهاتيك المراكز الفخمة حقا ؛ وإذا كانت تلك المراكز
الصغيرة التي لخاصة الامم التابعين لانيائهم هذا عملها في بعد
أربابها عن المعاصي كال كذب الذي تتكلم فيه - فليقل لي القارىء
كيف تفعل مرا كز الانبياء فيهم ﷺ لتبعهم عما ينزلهم
- وحاشاهم ثم حاشاهم - عما هم عليه من شرف لا يعلم قدره
غير مانحه عز وجل ، انها بلا أى تردد تفعل العصمة التي
تستحيل معها المعصية استحالة ، هذا نقوله في أى معصية فضلا

عن الكذب الذى يعدد دين الله من أفحش الفواحش وأكبر الكبائر ، وإذا كان ذلك يقال فى حضرات سادات الانبياء لا فرق بين نبي منهم ونبي - فكيف نقول فى سيدهم وصفوتهم وخاتمهم عليه الصلاة والسلام ، وقدره بينهم وبين جميع العالم الفاضل علويه وسفلية القدر الممتاز الذى يعرفون جميعا أنه القدر الذى لا يساميه قدر واحد منهم منفردا ولا أقدارهم مجتمعين ، كيف يكون حرص هذا على الفضيلة يعملها وكيف يكون حرصه على البعد عن الرذيلة ، أما أنا فأقول إن ربنا وحده هو الذى يعلم قدر ذلك منه ﷺ ، ولذلك أنا لا أزال أكرر أن الدعوة إلى حبه ﷺ دعوة صغيرة ؛ ولو قال لى حضرة القارىء إذن ما الذى تراه ينبغى معه ﷺ لكان جوابى فى صراحة أنا عاجز عن أن أعبر عما فى نفسى مما ينبغى له ﷺ ؛ ولعل الأقرب إلى الصواب - أو هو الصواب بعينه - أن الخلق عاجزون كل العجز عن أن يقوموا بكل ما ينبغى له عليه الصلاة والسلام فى فضله وكماله ؛ وجهد المقل أن يحبه المرء حبا فوق حبه لكل عزيز عليه حتى نفسه لأنه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ ﷺ عدد وكيفما صلى وسلم ويصلى ويسلم عليه

٩ - قوة البيان

ومن ضروريات المرشد الذى تلزمه لزوم المال للجواد ؛

قوة البيان ؛ ذلك أن وظيفته كلامية والكلام إنما يكون باللسان
فاذا كان له لسان يبين للمسترشدين ما أراد أن يوصله إليهم من
رشده وهداه أحبوه لاستفادتهم منه ما يستنيرون به في دينهم
ودنياهم بلا تعب ولا مشقة ؛ وكلما كان أفصح لسانا وأبين
قصدا كلما كان أحب إليهم ؛ وإني أظن أن العيون لا تقع على أحد
أحب إليها من مرشد ثابت الجنان طلق اللسان واضح البرهان
ولعل كلام هذا المرشد عند كثير من العقلاء أنفس وأثمن
وأحب من الجواهر الغوال ، ولو راجعت آذان الفضلاء هل مر
عليها صوت يداني في حلاوته صوت المرشد المبين لكان جوابها
النفي العام أن يكون عندها في حلاوة هذا الصوت حلاوة صوت ؛
وما أصوات القيان ، والمزاهر والعيدان ، وما إليها من الأصوات
الحسان . بالنسبة لهذا الصوت ؛ فإن تلك أصوات لهو ولعب ؛
وهذا صوت إيقاظ وتنبيه ؛ وأين مقدمات النيران من مقدمات
الجنان .

أما إذا كان المرشد عي اللسان غامض البيان عاطل البرهان
فاني لا أشبهه في نظر السامعين إلا بأحد الاغنياء الذين
عندهم من الذهب الآلاف والملايين ، وفيه من السخاء
منهاه ومن الرحمة ما يطالبه دائما بقتل فقرهم وتبديله بغنى
واسع ولكنه عند ما يمد يده للمال لينفذ ما يقتضيه سخاؤه
ورحمته يحال بينه وبين ذلك بحاجر قاهر يجعله يقبض يده

ولديه من الأسى مالدیه ، أو هو أشبه برجل لديه من الماء العذب
مقادير عظيمة وحوله من الناس كثير تكاد تحترق أ كبادهم
من شدة حرارة الظأ والجوع يرجونه بلسان واحد أن يسقيهم
ليزيل ظأهم ويحيي مهجهم ؛ فإذا مد يده ليلبي طلبهم قصرت عن
أن تنال مالدیه من الماء فيسكت في غم ، هكذا ينبغي أن
تتصور المرشد ضعيف البيان ، فانه يريد أن يقتل من العامة ظأ
الجهل بزال علمه أو ينفق عليهم من درر علمه مايزيل فقرهم
العلمي فتقف في وجهه تأتاته وفأفأته وتلجأجه فيسكت مضطرا
فيأسف ، أو يتأدى على حرونه ، يتقدم للكلام فيتأخر عن ذلك
لسانه ، كالحصان الشموس تدفعه الامام فيتأخر ، ومرشد هذا حاله
لا بد أن تنصرف عنه الناس ، أولا ينصرفون ولكن يعرضون
عن سماعه ، أو يسمعون وهم يضحكون منه ، وهل تتصور
أن هذا ينفع أحدا ، انك لا بد أن تنفى ثم تنفى ، لهذا يجب
أن تعلم أن ربنا العالم الحكيم لم يرسل رسولا قط شأنه ما
ذكرنا ، ولما أرسل تعالى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام
ورأى في لسانه شيئا من ضعف البيان ابتهل إلى ربه أن يقويه
ويزيل ذلك الضعف إذ قال **ك**ما يحكى عنه ربه من دعوات
(واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) فاستجاب له ربه هذه
الدعوة كتلك الدعوات فقال عز وجل (قد أرتيت سؤلك
يياموسى) فكل الأنبياء فصحاء فصاحة لا يساوون فيها ، وعقلاء

عقلا لا يدانون فيه أبدا، فانه لو أرسل رسول وكان قومه أعقل وأفصح منه لغالبه في مناظراتهم وأزموه الحجة، وذلك مصيبة هي أكبر المصائب لأنها انتصار للباطل على الحق من ناحية- وتعريض للأنبياء أن تحتقرهم أممهم ويسخروا منهم من ناحية أخرى، فان الغلبة في المناظرات قهر عظيم وصغار على المغلوب أليم، خصوصا عند العامة الذين يغترون بكل شيء ولقد كان لحضرة سيدنا ومولانا ونبينا محمد ﷺ الحظ الأوفر من هذه الفصاحة بين أوائك العرب الذين لم يخلق ربنا من أول الدنيا إلى آخرها أفصح منهم لسانا ولا أحلى بيانا، كان هؤلاء الناس يتعجبون من فصاحته ﷺ ولا يرون له نظيرا فيها بينهم حتى قال له مرة سيدنا أبو بكر رضى الله عنه (لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك) فكان جوابه ﷺ لبيان السبب في هذا أن قال (أدبني ربي ونشأت في بني سعد بن بكر) رواه ابن عساكر، يتضمن كلام سيدنا أبي بكر أنه صلى الله عليه وسلم صفوة الصفوة من العرب، والعرب صفوة الامم فيكون هو عليه الصلاة والسلام في فصاحته صفوة صفوة الصفوة من الامم، وتضمن كلامه ﷺ أن ذلك ليس بغريب فيه لسببين، أحدهما أنه نشأ ﷺ في بني سعد وهو شهادة منه ﷺ بتميز تلك القبيلة في الفصاحة بين العرب والسبب الثاني الذي قدمه صلى الله عليه وسلم في الذكر - وهو

السبب الأكبر — أن ربه أدبه ، وإني أرجو من القارىء أن لا يمر بهذا السبب دون تفكير فيه وتقدير له ، فإن المرء عندنا يكون من الاعاجيب في أدبه إذا عني بتأديبه رجل فاضل ، فإذا نشأ في بيت ملك ضربوا بأدبه المثل وقالوا (تربية ملوك) فما يقوله القارىء في رجل رباه ملك الملوك ورب الادباء ثم يصرح هر بذلك فيقول (أدبني ربي) ان الذي يقال في هذا الرجل الكامل ﷺ إن أكبر وأجل وأفصح وأبلغ أمة خلقها الله تعالى لتلك التربية وذلك التأديب — في ميادين مدحه أتمتها كمالاً ماها وأدبائها وشعرائها وذوى الرأى فيها ؛ واعتقادهم جميعاً — وهم كذلك — أنهم ما عملوا شيئاً ما غلوا وأطروا ، وكان المتقدمون من هذه الامة يتهيئون النزول في هذا الميدان ، يرون أنفسهم ليسوا بأكفاء لنزوله ، يقولون ماذا نقول فيمن يمدحه ربه الذى خلقه مدحاً لا يدرك مداه يتلى على عمر الدهور بالسنة لا يعلم غيره سبحانه عددها ، ومن هذا التأديب الالهى أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً كما أخبر ﷺ عن نفسه فيما رواه أبو يعلى والبيهقى والدارقطنى ، ومعنى هذا أنه يتكلم بالكلمات القليلة العدد وفيها من المعانى الشئ الكثير ، ولقد التفت إلى هذا المعنى من قال ان الدين كله مجموع في أحاديث ثلاثة أو أربعة من كلامه عليه الصلاة والسلام ، ولما أنه ﷺ منح هذه المنحة العظمى استطاع أن يأتى على حوادث

الدنيا والجسام التي تكون من عهده ﷺ إلى يوم القيامة في خطبة واحدة ، كما روينا ذلك قبلا ، ولم تستغرق إلا يوما واحدا تلك الخطبة ، ولولا أنه ﷺ أعطى تلك الجوامع ما أمكنه أن يفعل ذلك أبدا ، وما نحس به من أنفسنا أصدق شاهد على ذلك ، وهذه الخطبة تبين لك مبالغ ما أوتي ﷺ من قوة بيان وقوة إحاطة ، فانه خطبها وما قالوا إنه تلعثم ولا وقف ولا فكير ، وإنما كان يغترف من بحر الغيب الذي كان يتدفق على لسانه ﷺ تدفقا ، وإذا أردت أن تزدد من العلم بقوة بيانه ﷺ فبين يديك سنته ﷺ فارجع إليها واترك جوهرى فكرك يتناول ييد تقديره جواهر ألفاظها جوهرة جوهرة ثم استلهمه رأيه في ذلك إن كان من ذوى الرأى ، إنك ان فعلت ذلك رجع اليك ذهنك وهو في دهشة بما رأى ، ولا يسعه إلا أن يقرر بلمحة المنصف المقتنع أنه عاجز كل العجز عن تقدير ما تناول من تلك الجواهر ، فانه يرى صيارف هذه الأمة من عصره ﷺ ليوم يقبلون في هاتيك الجواهر وكلهم جد ونشاط في محاولة اكتسابها وتعرف مقاديرها على ما هي عليه ، وكانت النتيجة لتلك المحاولة أن كلا منهم فهم من قدرها على قدره هو موقنا أن وراء ما فهم ما وراءه ، ثم هي الشطر الثانى من الوحي الالهى ، وهى البيان الشافى للكتاب الكريم ، وهى الدرجة الثانية فى الفصاحة والبلاغة من درجة ذلك الكتاب الحكيم ، فاذا كنت من اهل الفهم لدرجة

الكتاب كنت أهلا لأن تفهم درجة كلامه ﷺ وقوة بيانه ، وإني
بعد هذا البيان أسأل القارئ الفاضل هل من المناسب عند ذوقك
السامى أن أدعوك لاعتقاد أنه ﷺ يستحق أن يحب وأن
تصرح كل يوم أن كثيرا ممن تعرفهم من نساء ورجال — الله
أعلم بحالهم — يستحقون أن يحبوا ، أما أنا فوالله لا أرى إلا
ما ذكرت قبلا من جهد المقل معه عليه الصلاة والسلام

١٠ - التواضع

وعما يتوقف عليه الإرشاد توقف اللطف على إين الكلام
وحلاوته - خلق التواضع أى خفض الجناح للمؤمنين ومعاملتهم
بالرفق والهدوء ، هذا يحتاجه المرشد كل الحاجة ، لأن فى طباع
الناس النفور من العلو والكبرياء ومقت المتكبرين والنظر اليهم
بعين البغضاء ، وهذا لا يتفق معه الاقبال على المرشد والاصغاء
اليه وقبول مايقول ، وإني أؤكد للقارئ أن الناس — بحسب
طبائعهم — يفضلون الحياة مع الجاهل على أن يجلسوا بين يدي
معلم متكبر ، ذلك لان النفوس فيها عظمة ، عليها طبعته وإن لم
تشعر بها ، فتراها لم-ذا تحب من يابن لها ويلطفها ويعاملها
معاملة الرفيق الواد ، فاذا أحست من أى مخلوق علوا وتعاضها عليها
ولو من ملك عظيم — اشمازت منه ونفرت وشعرت بضيق
فى صدورها لا تطيق معه أن تتحمل ذلك المتعالى عليها ، ولورأيتها

يومًا تتحملة فاعلم أنها الأمر ما تتحملة، وما رأيت في حياتي عباد الله يستعملون أحداً كاستئصالهم للمتكبر، حتى إنهم ليرونه ماشياً أو جالساً فيخيل لك أنه يمشى أو يجلس على أكبادهم، وتراهم يتعمدون معاملته بضد ما ينطوى عليه، يفهمونه بذلك أنهم يصغرون من شأنه ويحطون من قدره حتى يوقن أنه عندهم حقير لا عظيم ومنحط لا رفيع، وإنى لأظن أن الدنيا بأسرها فيها متكبر مستريح مع الناس يعاملونه بما يحبه في أى فرع من فروع المعاملات، هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولا تظن أن هذا المتكبر يستريح إذامات — لا تظن هذا وتأتاك أن أله في أخراهم يزيد عن أله في أولاه ملايين المرات، كيف لا والمتكبرون يكونون يوم القيامة في مقادير الذر يطأهم الناس بأقدامهم كما في الحديث الشريف : والله أعلم بما تعمله فيهم، النار بعد ذلك، وهذا من ربنا إفهام لهم أن ما كان بنفوسهم وهم بالدنيا كان غير صحيح، فإن أحدهم كان يرى نفسه عظيماً وإذ به يرى نفسه في مقدار الذرة؛ وكان يظن أن قدمه فوق الرموس وإذ به يرى نفسه تحت الأقدام

ولعل القارىء فهم من هذا حال أهل الكبرياء وما لهم، لهذا قلنا إن المرشد — مهما كان عادياً — في حاجة إلى التواضع شديدة، وإذن يجب أن تعلم أن سادة المرشدين حضرات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مطبوعون على هذا الخلق طبعاً

لا يحسنون أن يظهروا بغيره أبداً ، فإن ربنا الخالق المرسل لهم حكيم ، بعيد عليه بل مستحيل أن يرسلهم بحالة تنفر الناس منهم وتبغضهم لهم بغضاً لو أرادوا معه أن يقوموا بمهمتهم لعجزوا عنها كل العجز ؛ وحضرة مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم وسيدهم - كان في هذا الخلق سيد أهل التواضع كما هو السيد في كل خلق

ففي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم (كان يحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويقم البيت ويعقل البعير ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق ،) أى درجة هذه في درجات التواضع ، إنها والله درجة رحمة الله تعالى للعالمين حبيب الله وصفوته من جميع العباد هو هكذا ، ويباشر بيده الشريفة ما يباشر الخادم ، يحلب الشاة ويعقل البعير ويعلف الناضح وهو الجمل الذى يحمل عليه الماء للشرب ويحمل متاعه من السوق ، وأرقى من هذا فى باب التواضع أنه كان يرقع ثوبه ويخصف نعله ، وهو غير محتاج لتعليق لفهم هذا الخلق منه بدرجة لا تسامى - مع ما فى ذلك من إفادة أنه كان لا يترك الثوب إذا تمزق وأبْلَته الايام ؛ بل كان يضع فى مواضع التمزيق قطعاً من القماش متينة ويصلها بالثوب بالخياطة ويلبسه مرقعاً ، والعيون تراه وهو لا لبسه مرقعاً ، والموت أهون من هذا عند المتكبرين - ولا يترك النعل بمجرد تخرقه بل يصلح

مافسد منه ويلبسه وهو هكذا ، وأسمى من هذا كله - في هذا الباب - أنه كان يكندس البيت ويعجن العجين - لا وحده منفردا كيلا يرى - بل يعجن مع الجارية خادم البيت التي لا تصبر عن إذاعة مثل هذا ، إني أرجو أن يطيل القارىء النظر في هذا ثم يطيله ليفهم جيد أين سيد العالمين ورحمة الله للخلق أجمعين وأين الكندس والعجن اللذان هما من أعمال النساء . بل الخدم من النساء ، علم ﷺ أن (من تواضع لله رفعه الله) كما رواه أبو نعيم في الحلية عنه ﷺ ، فتواضع لله ثم تواضع للحد الذي سمعته ، فرفعه الله ثم رفعه للحد الذي سبق ويأتى بيانه - وعلم ﷺ أنه الأسوة الحسنة لكل أمته ، وفي هذه الأمة بل السواد الاعظم منها الفقراء ، ففعل ما تقدم ليفعله الفقراء ، مستريحين فاهمين أنهم يفعلون ما فعله سيد الخلق ﷺ . وعلم ﷺ أن سيكون في الأمة أغنياء وعظماء فافهمهم بعمله هذا أن الغنى والعظمة يجب أن يكون معهما تواضع يسهل معه فعل مثل أفعاله هذه ﷺ - وعلم عليه الصلاة والسلام أنه بين قوم جاهلية كلهم أنفة وعجرفة وغطرسة ، فأراد بفعله ذلك أن يقتلع من قلوبهم تلك الاخلاق من جذورها ويمرهم على لطف المؤمنين وسهولتهم وحلاوتهم - مع ما في ذلك من بيان أن العظيم لا يؤثر على شرفه ولا يصغر من شأنه مثل هاتيك الأفعال ، بل تزيده شرفا على شرفه ورفعة على رفعة ،

والذى يخاف أن يسقط و تذهب حرمة من مثل ما ذكرناه والساقط
فى نفسه من عزع الحرمة فى الصدور والعيون ، مثل هذا هو
الذى يحرص الحرص كله على أن يبعد عن مثل تلك الافعال
لعله يحافظ على تلك القيمة المزعزعة ، ولمذه المناسبة أقول إني
كثير التفكير فيما عليه نفوس الناس وأستطيع أن أقول -
كنتيجة لكثرة هذا التفكير - إني ما رأيت رجلا فاضلا يستحق
أن يقال عنه إنه من العظماء حقا إلا ورأيت سهلا هينا لينا
قريبا من الناس فى كل حال لا يشك من رآه فى أنه لا يعرف
لنفسه أدنى قيمة ، وما رأيت رجلا منقبضا بعيدا عن الناس
متعاليا عليهم فى زهو وعجرفة الا وكان بعيدا فى الواقع عن
العظمة والفضل بمقدار ما به من تلك العجرفة والخطيئة ، وهذا
هو والله ما يفهمه قوله ﷺ (ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف
متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل
جواظ جمعظري مستكبر) رواه الشيخان والترمذى والنسائى
وابن ماجه وأحمد ، وكان المنحط لما رأى نفسه خاليا عن أسباب
الرفعة والعظمة أراد أن يرفعها هو ويعظمها ليغتر الناس بتكلفه
ذلك ويعظموه ، وهو غالط غلطا بينا ، كان لذلك التواضع
الوحيد الفريد تواضعه ﷺ أثره فى معاملته ﷺ
لأصحابه واسواهم ، وكان لهذه المعاملة أثرها فى نفوسهم رضى الله
عنهم وفى نفوس غيرهم ، فانه لم يحفظ عنه ﷺ أنه واجه

أحدا في حياته كلها بشيء يكرمه إنما هي الحفاوة والالجال
والبشاشة والاكرام اللائق بأكرم العالمين ﷺ، ولذلك كان
يفد إليه الوافد وهو ﷺ ابغض الناس إليه فينصرف من
عنده وهو أحب الناس إليه ؛ وكان يزوره العربى وهو من
أجلاف العرب تحوطه ظلمة الكفر من كل نواحيه فيرجع
حكيمًا ينطق بالحكمة وقد محا نور الايمان ظلمة الكفر منه ،
ومن عجائبه ﷺ التى يستطيع الدهر أن يقسم أنه ما رآها في
غيره عليه الصلاة والسلام أن أصحابه رضى الله عنهم كان يفهم كل
واحد منهم من منتهى لطفه ﷺ فى معاملته له - أنه أحب أصحابه
إليه ، وهل ينتظر الانسان أو يتصور عقله ألطف وأرفق من
أنه ﷺ كان يتجرى حتى فى أسمائهم أن يناديهم بأحبها اليهم ،
وأظنك توافقنى فى أن المتكبرين لا يعجبهم هذا وإنما يعجبهم
أن ينادوا بأبغض الاسماء وأن يعاملوا أقبح المعاملة وأغلظها
وأن يسيروا وياعنوا بل وان يضربوا ويقتلوا لانهم يفهمون
أنهم فى مستوى غير مستوى الناس ، ومن جهلهم وغباوتهم أنهم
ينطوون على أن الناس يعتقدون فى أنفسهم أنهم دون حضراتهم ،
وحينئذ لا يجروا أحد أن يقابل غلظتهم وسبهم ولعنهم وضربهم
وقتلهم بمثله ، لأن المقابلة تقتضى مكافأة فى المقام ولا مكافأة فى
نظرهم ، ولذلك يرغبى أحدهم ويزبد إذا رأى أحدا عامله بما
يناسب معاملته لأنه فوجىء بما لم يكن له فى حسابان ؛ قاتل الله

الكبر وقاتل أهله ، وكان ﷺ إذا استوقفه أحد من أصحابه - وقد تكون امرأة - وقف معه كما يشاء ولا ينصرف أبدا إلا إذا كان الذى استوقفه هو الذى ينصرف ، وكان إذا تناول يده متناول لا ينزعها من يده مادام ممسكها فإذا أرسلها ضمها إليه وقتئذ ، وكان ﷺ إذا أحب أحد أن يتكلم معه أصغى إليه ولا يخل بهذا الأصغاء مادام هذا المتكلم يتكلم فإذا سكت استباح لنفسه عندئذ أن يشغل أذنه بسواه ، ﷺ ما أصبره على ملاطفة الناس والرفق بهم فإن هذا الذى يفعله إنما يقوى عليه المملوك الذى يشعر أنه فى رق مولاه ، أما من يملك نفسه ويفهم أنه حر التصرف - فضلا عن سيد الخلق - فبعيد كل البعد أن يصبر هذا الصبر ؛ ولكن لا عجب فالقادر الحكيم طبع صفوة خلقه على هذا ، لأنه من ألزم ما يازمه لمركزه ، وكان ﷺ يمشى فقراء أصحابه وضعفاءهم ويزورهم في بيوتهم ويعودهم في مرضهم ويشيع جنازهم ويحبهم الحب الذى يحمله على أن يدعو مولاه أن يحييه وأن يميتة وأن يحشره في زمرةهم ، إني أحب أن يفكر في هذا أناس يرون مخالطة المساكين من العورات التى يستحي منها ويحب البعد عنها ، وكان ﷺ إذا دعى من مسكين - ولو إلى خبز شعير - أجاب دعواته ولا يرى أبدا أن من دعاه ليس من طبقة وأن ما قدمه له من كرامة لا يليق بمقامه كما تتخيله أفكار جاهلة فاجرة ؛ هو ﷺ يعلم أن

روح الدعوة إقامة البرهان على المحبة الكثيرة ؛ وليس من مكارم
 الاخلاق التي بعث لأن يتممها أن يرفض الدعوة ؛ لأن ذلك
 يكون بمثابة تكذيب للمحب المخلص ؛ وهو ما تنصدع له القلوب ،
 ولولم يحب ﷺ إلا دعوة مماثل قدم ما يليق بالمقام ما أجاب
 دعوة ؛ لأنه ليس في الناس مكافئ ، وليس عند أحد ما يليق بهذا
 المقام الذي ليس في العالمين الديوى والاخرى مقام يقاربه ،
 قلت فيما سبق إن هذه المعاملة أثمرت ثمرتها في أصحابه رضوان
 الله عليهم ؛ وهل يدري القارىء ما هي هذه الثمرة ؛ هي إجلال
 وإكبار له عليه الصلاة والسلام يحول بين أحدهم وبين أن يملأ
 عينه من وجهه الكريم ﷺ ، وحب وصل بهم إلى أن يرضوا
 أن تلمس شعرة واحدة من جسمه ﷺ لمس إهانة وفي ارواحهم
 بقية اتصال بأبدانهم ؛ نعم كانوا والله في المحافظة عليه كالآساد
 تهيج محمرة العيون مكهفرة الوجوه بادية الانياب ، محددة المخالب
 إذا أحست من يريد اقتحام عرينها . لذلك عاش وانتقل إلى
 الرفيق الاعلى وهو أعز من على وجه الارض ، تملأ العيون
 مهابة وجلاله . و يملأ القلوب حبه وإعظامه ﷺ ، لهذا أنا لا
 أزال على مذمبي فيه ﷺ من أنه من العيب الكبير على الرجل
 العاقل أن يحتاج إلى الدعوة إلى حبه ﷺ مع أن ماذكرنا قطرة
 من بحر تواضعه ولطفه ورفقه ﷺ

١١ - الزهد

أما حاجة المرشد إلى الزهد في حطام هذه الحياة فحاجة لا يمكن الاستغناء عنها لا مريء يحرص على كرامته ويريد أن يكون الارشاده أثر في نفوس الملتفين حوله من المسترشدين به، إن مما يدعو إليه المرشد الرغبة فيما عند الله من نعيمه المقيم وكرامته في دار رحمته التي أعدها للصادقين من عباده — والعمل للوصول إلى ذلك في جد ونشاط وتناد على عمل الصالحات — وفي انقباض مستمر عن مباشرة ما نهى مولانا عنه تبارك وتعالى ، ويلزم هذه الرغبة الفتور والتهاون في الجمع لهذه الحياة والاستهانة بشأن لذائذها ومتاعها والنظر بعين الرحمة والاشفاق إلى أهلها المشغولين بها عما رغب الله فيه — فاذا سمع الناس منه هذا ثم رأوه مستغرقا فيما رغب عنه قليل الاكتراث والعمل لما رغب فيه حاروا في شأنه واضطربوا في تأويل دعوته وظنوا به الظنون ، وأقل ما يكون منهم نحوه أن ينظروا إليه بعين المتناقض في قوله وفعله ووراء ، هذا من التهاون بشأنه ما وراءه ، ويتبع ذلك عدم الحرص على العمل بوصاياه ، وهي فتنة دينية أي فتنة ، ولا تبعد إذا ذهبت إلى أبعد من ذلك ، وهل تدري ما هذا الأبعد ، هو عدم الثقة به والشك فيما يصدر عنه من أوامر ونواه قد تكون في أصل الدين وصميمه ، وهذا إن لم يكن كفرا من العامي يكون به على حافة الكفر ، وهي بلية

عظمى وباب شقاء كبير، والذي أدى إلى كل هذا هو تعظيم المرشد لما أمر بتصغيره وتصغيره، لما أمر بتعظيمه، إن المرشد الذي يحب الدنيا يعمل ولا شك للحصول عليها، وهذا يستلزم مزاحمة الناس فيما هم فيه، وهذه المزاحمة أقل ما فيها بغض من يراحهم لحضرته، ومن يقول إن المبغضين لمرشد ينتفعون به، بل هم لا يعترفون له بصفة الارشاد إذا رأوه في مستواهم في التكالب على الدنيا، وقد يتخذ حضرته الارشاد آلة لاصطياد الدرهم والدينار من عباد الله الذين يجتمعون به ويكونون حوله، وهو بهذا يجهز على حياته الارشادية في لمح البصر، فان المال محبوبهم الأكبر ومقصودهم الأعظم، فمن رأوه يوشك أن يشاركهم فيه بثأ حبل وصله غير آسفين، ومن يرشد وقد التفت يمينا وشمالا فلم يجد أحدا، ولهذا المعنى تجد كتاب ربنا يحكى عن رسله أن أحدهم كان يصارح قومه بأنه لا يسألهم على ارشاده لهم أجرا إنما ينتظر أجره من ربه الذي أرسله وأقامه في عمله، يصارحهم بذلك ليؤمنهم من ناحيته على دنياهم ليطمئنوا عليهم وتقوى قلوبهم على الاجتماع به وسماع ما يقول، أما إذا رأى الناس مرشدهم قبل أن يقول يفعل ما يقول من عدم اهتمام بهذا الفانى ذهب أم جاء قل أم كثر ورأوه مع هذا الجواد الذى لا يسابق فى ميدان العمل لا خراه ساءما إذا رأى الناس مرشدهم هكذا فلا تسأل عما تجده فى قلوبهم من احترام له وإجلال بل وتقديس ولا تسأل عما يحدره ارشاده

من نفع عظيم، وكلما كان المرشد أزهدي في متاع هذه الحياة كلما رأيت إقبال الناس عليه في ازدياد وانتفاعهم به في اطراد، واستدلوا بحاله هذا على صدقه وعلو همته؛ وكيف لا يكون صادقا وعالي الهمة من يعاف ما يتزاحم الناس عليه ويتخاصمون ويتقاتلون، حتى أن الولد يقتل أباه من أجله والوالد يقتل ولده في سبيله، ولهذا السرتجد قادة الأمم حقا حضرات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - كانوا في عزوف تام عن الدنيا وإقبال كامل على الآخرة، وبهم اهتدى عقلاء أممهم هداية استحقوا بها أن يرضى عنهم رب العالمين، ويحييهم في هذه الدار حياة طيبة بما يتودد إليهم من فيوضاته الاحسانية وأسراره التي يختصم بها، تلك الأسرار التي من شم منها شمة سما ذوقه سموا ينكر معه كل لذى دنيوى، ويصبحون وعندهم المقلق المبرح من الشوق إلى الوصول إلى عالم ما تشرفوا به من ذلك السر الالهي، فاذا تشرفوا الشرف الأكبر بذلك العالم عالم الجزاء كاملا - رأوا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذا حال من اهتدوا بالأنبياء، أما نفس الأنبياء فالله أعلم بما يفيض عليهم من فضله في هذه الحياة، وبما يكرمهم به في تلك الحياة، إذا عرفت هذا يا حضرة القارىء سهل عليك جدا تعليل ما تسمعه عن حضرات الأنبياء وعن اهتدى بهم - من احتقار للذات هذه الحياة، فإن من ذاق الشهد لا يحرص كثيرا على تعاطي الحنظل. وإنما

(٥ - ينابيع)

يتعاطاه لحكم الضرورة القاهر- ومن استهداف للحتوف في سبيل
الله ، فإن أسعد الأيام هو اليوم الذي يصل فيه المرء إلى ما كان
يلهمه الشوق إليه ؛ ولذلك كان أصحاب حضرة مولا ناو نبينا ﷺ
إذا أصيب أحدهم إصابتة وأحس أنها القاضية عليه اعتلا سرورا وربما
صاح قائلا (فزت ورب الكعبة) ، ولما مرض أحدهم وعرف
أن مرضه هو المرض الأخير كان يقول (غدا نلقى الأحبه
محمدنا وحزبه) والله أعلم بما كان بقلبه من فرح وابتهاج وهو
يقول ذلك ، إن هذا الحنين الجار إلى الآخرة من أولئك
الأصحاب رضى الله عنهم يدل دلالة ظاهرة على أن الدنيا
ما كان لها أى نصيب في قلوبهم ، وإلا لبدا ذلك على ألسنتهم وهم
يودعونها الوداع الأخير ، وليس ذلك بكثير عليهم رضى الله
عنهم ، فإن النبي ﷺ شهد لقرنهم بأنه خير قرون الدنيا ، وخاطبهم
ربهم بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، وإذا كان هذا
مبلغ زهد أصحابه رضى الله عنهم في الدنيا وعدم التعلق بها -
فبماذا يقدر القارىء زهده هو ﷺ ، لعله يحكم بالبداهة أن
الفرق بينه وبينهم يفوت حد التقدير ، بل هذا الحكم يجب أن
يكون في النسبة بينهم وبين أى رسول ، أما قدر زهده هو ﷺ
فلا يعلمه إلا مولاة عز وجل ، وإن شئت أن تسمع شيئا عن
هذا الزهد العالى فاسمع مارواه الشيخان والترمذى ، قالت عنه
ﷺ أمنا الجليلة الصديقة السيدة عائشة رضى الله عنها (ولقد

مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رف لي
فأكلت منه حتى طال علي فكلته فقني) ، وقال صلى الله عليه وسلم (عرض علي
ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب ولكن اشبع
يوماً وأجوع يوماً فاذا جعت تضرعت اليك وذكرك وإذا
شبعحت حمدتك وشكرتك) . رواه احمد والترمذي

فماذا يقول القارىء في هذا الزهد الذي يأبى أن تكون
له بطحاء مكة ذهباً ويختار الجوع تارة والشبع أخرى ليصبر
مرة ويشكر مرة غيرها ، وأكثر من هذا ما رواه ابن عساكر
وابن سعد والطبراني وأحمد واللفظ له وهو قوله صلى الله عليه وسلم (والله
لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة) ورواه
الديلمي أيضاً من حديث ، وإنما كان هذا أكثر لأنه يتضمن
زيادة علي الحديث السابق ، وتلك الزيادة هي أنه عليه الصلاة
والسلام باغ جأه عند ربه إلى درجة أنه صلى الله عليه وسلم لو شاء ذلك
الذي أباه لم يكن بين ربه وبين تنفيذ هذه المشيئة إلا صدورهما
فقط منه صلى الله عليه وسلم ، وهذا شيء عظيم جداً بل لا يتصور العقل درجة
في الوداد ودار ربنا فوقه أبداً ، وإني أحب من القارىء أن لا يقصر
هذا المقام عليه صلى الله عليه وسلم في هذا الذي أباه فقط ، بل الذي أرجوه
أن يفهم أنه صلى الله عليه وسلم لو شاء أي شيء يكون قضاؤه عند مشيئته ،
وقد قررت هذا المعنى أمنا الجلالة الصديقة رضى الله عنها
بخطابته صلى الله عليه وسلم به ولم ينكر عليها إذ قالت له (ما أرى ربك

لا يسارع في هواك) ، وهذا معناه أنه ﷺ لو شاء أى شىء لسارع ربه إلى تحقيقه له وإكرامه ﷺ به بمجرد ميله اليه فقط دون أن يحشمه مشقة سؤال لذلك الشىء ، وهذا معنى ربما تلجأ في الايمان به بعض ضعاف العقول والايمان ، وإني لأرى لهذا التلجأ معنى لوجهين ، الوجه الأول أن النص صريح فيه وصحيح صحة هى منتهى درجات الصحة ، فان الذى رواه أحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه وابن ابى حاتم وابن مردويه ، والوجه الثانى أنا نعلم أن نبينا ﷺ سيد العالمين وصفوة الخلق أجمعين ، فهو إذن جدر بكل إكرام يتصور صدره من ربنا الحبيب له ، وما ذكر يحجزه العقل ولا ينكره ، فانه داخل تحت تفضله تعالى وإكرامه ، من يستطيع أن يمنعه تعالى عن تفضله ؛ ومن هذا قدره لا يعد عظاماً من جانبه أن يعاف جبال الذهب والفضة وهى تحت مشيئته ، وما هى هذه الجبال عند هذا المقام ، إنها والله صغيرة وحقيقة ، ويرفع قدرها من يجعلها كنزقة أمام أنفس جوهرية فى الوجود ، يا ربنا يا كريم يا غنى يا قدير يا مختار ، بحبك لهذا الرسول الأكرم وبمكاته هذه عندك أكرمنى إكرامك للعلامة العليا من خاصة عبادك ، وأذقنى حلاوة ودادك ، وأدمه على ، وزدنى منه ثم زدنى ، والمعنى المشترك بين هذا الحديث وبين الذى قبله يوافقهما فيه حديث ثالث رواه الطبرانى بإسناد حسن يتضمن أنه ﷺ

عرضت عليه مفاتيح خزائن الأرض وعرضت عليه جبال تهامة
أن تسير معه ذهباً وزمرذاً وياقوتاً وفضة فأبى أن يقبل ذلك،
والذى تفهمه من هذا المقام أنه ﷺ لما عاف الدنيا ذهبها
وفضتها وجواهرها ولم يكن منه أى ميل اليها عرضت عليه
بحالة لم نسمع لا فى كتاب ولا فى سنة ولا فى تاريخ - ولو كاذب -
أن أحداً سبق أو يأتى يدانيه ﷺ فيها أو يساوى بالنسبة له
جزءاً من (ديشايون) بل (ديشيليونات) ، كيف لا وهى جبال
تهامة كلها ذهباً وزمرذاً وياقوتاً وفضة ومع ذلك جميع مفاتيح
الخزائن الذهبية والفضية والجوهرية واللؤلؤية والدريّة والمرجانية
وما اليها من المعادن الثمينة التى فى جميع الأرض فأبأها ﷺ
بعد هذا العرض أيضاً ، والمعنى الزائد يرافقه حديث رواه ابن
سعد عن عطاء قال (دخل عمر بن الخطاب على النبی ﷺ وهو
مضطجع على ضجاع من آدم محشور ليفاً وفى البيت أهبة ملقاة
فبكى عمر فقال ما يبكيك يا عمر فقال أبكى أن كسرى فى الخز
والقز والديباج وقيصر مثل ذلك وأنت حبيب الله وخيرته كما
أرى قال (لا تبك يا عمر فلو أشاء أن تصير الجبال ذهباً لصارت
ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح ذباب ما أعطى كافر منها شيئاً)
وهذا الحديث يفهم منه سيدنا عمر معنيين بهما يستريح ولا يبكى
المعنى الأول : أن الفقر الذى به البيت النبوى لا شىء فيه إلا
جلود ملقاة - فقر اختياري ، ولو شاء ﷺ مالاً به يكون الغنى

الديوى لكان له من ذلك ما لم يسمع به أحد ، كيف لا وهى
جبال الدنيا كلها - لا جبال تهامة فقط - تنقلب له ذهباً يصرف منها
ويتصرف كما يشاء ، والمعنى الثانى ان الغنى الديوى ليس بالشىء
العظيم الذى يبكى لعدمه فان الدنيا كلها عند الله لا تساوى جناح
ذباب ، وانى أستطيع أن أقول لك بعد هذا كله إنه ﷺ دعا
مولاه وابتهل اليه أن لا يجعله من أغنياء الدنيا بل أن يجعل رزقه
ورزق آله قوتا أى لا يزيد عن قدر ما به يعيشون ، وهذا
المعنى رواه البخارى ومسلم ، وقد استجاب له ربه هذه الدعوة
فكان كما رأى سيدنا عمر ، نعم كان كذلك رغم إقبال الدنيا عليه ﷺ
أيما إقبال - بالغنائم والأفياء - فلم يلتفت لها وكان يفرق أكوام الذهب
والفضة دون أن يبقى لنفسه درهم ولا ديناراً ، وهذا المعنى فيه
ﷺ أى دعاؤه بما تقدم - أرقى مما قبله فان الانسان قد لا يميل الى
الشىء واذا عرض عليه لا يقبله ثم يتركه عند هذا الحد ، أما
الزيادة على ذلك بالابتغال الى الله أن لا يكون هذا الشىء
مبالغة فى النفور من ذلك الشىء وشدة حرص على أن لا يكون ،
ومن هذا تستطيع أن تتخلى وصفه ﷺ بالزهد فى الدنيا
وتقرر جادا أنه كان نفورا منها

وهذا ظاهر فى كل أحواله ﷺ فقد عرفت ، أن فراشه كان
جلداً محشواً بليف وهو فى الصحيحين ، وانظر كيف يكون حال
البدن الذى يكون تحت جنبه الليف محشواً فى جلد — وأن

بيته ما كان فيه شيء من متاع هذه الحياة ، وتقدم أنه كان
يلبس الثوب المرقع والنعل المخصوف — وأنه كان يركب الحمار ،
ويجب أن تعلم أنه خرج من هذه الدار ولم يشبع من خبز الشمير
يومين متتابعين كما رواه البخاري — وأنه ﷺ كان يمر عليه
الشهران ستون يوما وما أوقد في آياته نار . اتفق البخاري
ومسلم على رواية هذا ، كل تلك المدة كانت تمر وما أنضجوا
شيء ما يأكلونه أو يأتدمون به ، وإنما هما الأسودان التمر
والماء . يعيشون بهما — وأنه ﷺ كانت تمر عليه الأيام المتتالية
لا يذوق فيها شيئا لا قليلا ولا كثيرا — وأنه لهذا كان ﷺ
يشد على بطنه حجرا تارة وحجرين تارة أخرى ليقم ذلك
من صلبه ويخفف من حرارة الجوع ، ولا تستغرب هذا منه
ﷺ فإنه الذي يقول (إن أكثر الناس شبعاً أطولهم جوعاً
يوم القيامة) رواه الحاكم وابن ماجه ، يعنى والعكس
بالعكس — وأنه ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى وما ترك
دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا . رواه مسلم في صحيحه ،
والذي لم ينفر منه ﷺ من الدنيا شيئا من النساء والطيب ،
هذان هما اللذان أخبر ﷺ أنها حبيبا إليه ، أما الطيب
فمحبوب للناس وللملائكة يحبون ان يشموه من المخاط لهم
ويكرهون أن يشموا منه رائحة غير طيبة ، وهو ﷺ دائمين أن
يكون مع الملائكة أو مع الناس ، وغير متصور أن يختلط ﷺ

بهؤلاء، أو هؤلاء، إلا وهو كما يحبون، فكان يتطيب ليضيف رائحة الطيب على رائحة بدنه الطبيعية. وهي أطيب من المسك. فتشدد ثم تشدد رائحته الطيبة، وأما النساء ففنع منهن بسيدة واحدة اقترن بها قبل أن يبعثه الله ودامت معه حتى بعد البعثة، وكانت وقت زواجه لها تبلغ الأربعين سنة، وكان هو إذ ذاك في الخامسة والعشرين، وبعد أن توفيت تزوج صلى الله عليه وسلم كثيرات غيرها بترخيص من ربه له خاصة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى ومعه منهن تسع، وإنما أبيح له الزيادة عن أربع لمقصدين دينيين جليين

المقصد الأول أن يكون له من وراء ذلك الزواج عصبية من أصهاره الكرام الكثيرين يعتز بهم بن العرب، وذلك من أهم المهمات لمثله، فإن المدعويين إذا علموا أن لمن يدعوهم قوة تدفع عنه اعتداء المعتدين يرهبونه ويكفون عنه أذاهم إن لم يتبعوه، ولذلك يحكى ربنا عن قوم سيدنا شعيب عليه السلام أنهم قالوا له (وانا لئراك فينا ضعيفا ولورخطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير) فخافوا رهطه ولم يخافوا ربه

والمعنى الثانى أن يتعاضدا ولتلك النساء على تبليغ ما يشاهدنه منه صلى الله عليه وسلم وهو فى البيت مما لا يطلع عليه غيرهن حينئذ، والأفكار تأبى أن تفهم أن هذه الكثرة من النساء يمر على فطنتهن جميعا شيء دون أن يبلغ، ولقد قمن رضى الله عنهن بذلك خير قيام وروين علما كثيرا وصل إلى الأمة من

طريقهن ، من أجل هذا كان حبه ﷺ للنساء ، لا لما يخطر
على بال الجاهلين به ﷺ من الميل اليهن والتمتع بهن ، فان
هذا معنى صغير جدا ينزه عنه ﷺ

لا بل ينزه عنه صغار الأتقياء الذين ذاقوا طعم الايمان وعرفوا
قدر ما بين اللذات البهيمية واللذات الروحية ، وانما يتصور فيه
ﷺ ذلك المعنى الفاجر الخاسر رجل فيه شبه بأبناء هذا
الزمان الذين فعلت الشهوة النسائية بقلوبهم وأبدانهم ما فعلت
حتى غدوا بحالة لا تفرق بينها وبين حالة أى بهيم مع أنثاه ،
والمشاهدة أعدل شاهد بذلك ، وإذا كان أحد هؤلاء بهذه الحالة
الشنيعة فلا بعد فى أن يخطر بباله ان صفوة العالمين ﷺ انما كان
يتزوج النساء لما يشعر هو به من نفسه ولأجله يتعرض للموت
من وجوه كثيرة ، بل نحن يصعب علينا حصر من يموتون فى
سبيل تلك الشهوة ، ومن طالع لوح الوجود أو كان له اعتياد
بمطالعة أخبار الصحف اليومية عرف ما نقول ، ولو كان
عنده ﷺ هذا الميل الصغير الحقيق لظهر عليه وهو فى
فتوته وقوة شبابه أيام كان مع تلك السيدة الواحدة المتقدمة
فى السن رضى الله عنها ونفعنا بحبها ، أما مسكنه ﷺ فكان
حجرات حول المسجد بها أمهات المؤمنين ، كانت لاهناك ولا
هنا فى المظهر الدنيوى ، ومن أين يأتى هذا المظهر لحجرات
حيطانها من جريد النخل مكسوا ذلك الجريد (بنخوش) من

الشعر إذا مد الانسان يده إلى سقفها وهو واقف ناله . ومن
هذا نفهم حاله ﷺ مع كل أنواع المحبوبات الدنيوية من مال
لما كل للملبس لمركب لمنكح لمسكن لفراش . سبحانه الله أنا أشعر بخجل
عظيم وضعف أعظم وأنا أكتب هذه الفصول التي بها أثبت أنه
ﷺ يحب أن يحب . ولو كنت أكتب في غيره ﷺ من
أصحابه رضى الله عنهم أو غيرهم من فضلاء الأمة لكنت أنشط
منى وأنا أكتب فيه ﷺ ، وسر هذا أن الناس إنما يمدحون
ويتفاوتون في قدر ما يستحقونه من ذلك المدح — بقدر حبهم له
ﷺ — وبمبلغ ما وصل اليه أحدهم في التشبه به ﷺ في أخلاقه
الفريدة ، وشماله الفذة ، وأعماله التي تأتي كل الآباء أن تماثل
بل ولا أن تدانى ، وعلمه البحر الخضم الذي لا يعلم له شواطئ ، إلا
من منحه سبحانه وتعالى ؛ نعم ان الاقتداء به ﷺ ميدان
لا غاية له ، وفيه المؤمنون رضى الله عنهم يتسابقون تسابق الجياد؛
بل وما الجياد في سباقها ، فان أودية المقامات وفيافي الأحوال
لا يصلح لقطعها ولا يستطيعه إلا أولئك الأتقياء . أما
ما يعترض المتسابقين في ذلك الميدان من سباع الرذائل ومن
لصوص الشياطين وما يكادون به من حفر يحفرها أولئك
اللصوص لحضرات المتسابقين ليردوا فيها وبذلك التردى
ينقطعون عن اخوانهم كما الأبطال — فذلك أيضا يتفاوتون
فيه رضى الله عنهم قوة وضعفا . وعلى قدر نشاطهم في القضاء

على سباع الرذائل ، وتنبيههم لما يكيد به لصوص الشياطين —
 يكون قدر ما يستحقونه من مديح ؛ وكما ان ميدان التآسى
 لا غاية له فكذلك ميدان مدح المتسابقين فيه لا غاية له ؛ وإذا كان
 هذا قولنا فيمن يحاولون الاقتداء فماذا نقول في الامام المقتدى
 به الذى كل اجتهاد من عداه ليس إلا فى محاولة التشبه به صلى الله عليه وسلم ،
 أنا فى هذا انفصل أحاول إثبات زهده صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك مدحا
 له عليه الصلاة والسلام ، ومن تأمل قليلا يظهر له أن ذلك
 ليس من المدح له صلى الله عليه وسلم فى شيء ، فان الدنيا لا قيمة لها عنده
صلى الله عليه وسلم ، بل سبق ما تفهم منه أنه صلى الله عليه وسلم كان نفورا منها ؛ ومن فى
 الدنيا يفهم أن ترك المنفور منه المرغوب عنه شيء عظيم يستحق
 المدح من يصدر منه ، إن الدنيا هى التى يصرح صلى الله عليه وسلم بأنها
 لا تساوى عند الله جناح ذباب - ويقرر أنها أهون على الله من
 جيفة ملقاة على الأرض ، ويحكم بأنها ملعونة ملعون ما فيها إلا
 ذكر الله وعالما ومتعلما ، ويمر على قوم يعالجون خصائلهم
 ليصلحوه فيقول لهم (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك) ، ومن
 أجل هذا قال صلى الله عليه وسلم (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)
 وعرض عليه أصحابه أن يتخذوا له فراشا ليأوى به يستريح عليه إذا
 نام بدل الفرش الخشن الذى كان ينام عليه ، فرد عليهم صلى الله عليه وسلم
 بقوله (مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت
 شجرة ثم راح وتركها) ، وإن أراد القارىء أن أقول له الحق

كله في كتابتي فيه ﷺ فاني قائل له ، أنا أشعر وتشعر كل شعرة من بدني كأنني أحاول بتلك الكتابة شيئاً لا يسوغ لي ولا يليق به ﷺ ، وإني متفق كل الاتفاق مع الشاعر الذي وصف بمدوحاً له فقال ما لا يحوز والله أن يقال إلا فيه ﷺ

تجاوز حد المدح حتى كأنه بأحسن ما يثنى عليه يعاب وبعد فهل حضرة القاري يستحسن أن أقول له إنه ﷺ يجب أن يحب فبادر إلى حبه بكل قلبك لما نذكر عنه من شمائل لم ير ولن يرى مثلها الوجود ، إني أتصور أن توجيهي مثل هذا الأمر لأي مؤمن كأنه طعن عليه ، بل طعن أليم وشديد ، لما أن داعية حبه ﷺ في قلب كل مؤمن كاملة غير محتاجة إلى محرك يحركها ، أدام الله علينا نعمة حبه ﷺ وحب أحبابه ، وأما تنا على ملته ، وحشرنا في زمرة ، ولا حرمنا في الدارين لذيذ رؤيته ، اللهم آمين

العمل بالقول

الفروع التي يتعلق بها الارشاد كثيرة ومهمة . ولكثرتها وأهميتها أنزل الله تعالى الكتب وأرسل الرسل وأوجب الجهاد للقيام بها وتنفيذها ، وفي الجهاد ما فيه من إزهاق للأرواح وضياع للأموال وتلب نيران خصام بين أقوام وأقوام ، بل تبلغ أهمية تلك الفروع إلى حد أن تربط بالقيام بها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة التي لا تنتهي لها ، فالذي يتصدر الارشاد لا بد أن يتعرض

لكل فرع من تلك الفروع بياناً له وتحريراً على فعله إن كان من
الأوامر أو تركه إن كان من النواهي ، لا فرق بين أن يكون الفعل
أو الترك من وظيفة القلوب أو الجوارح ، ومعروف أن المرشد
له لسانان يفهم منهما الناس ما يريد أن يوصله إليهم من الأحكام ،
أحد اللسانين لسان الحال ، والثاني لسان المقال . فلسان الحال هو
عمل المرشد ، ولسان مقاله معروف ، ولسان المقال تسمعه الآذان
ولسان الحال تراه العيون ، وعن هذه الرؤية تحكم الآلباب كما تحكم
بعد أن تسمع الآذان ، فإذا اتفق لسانا المرشد في البيان عرف
الناس حق المعرفة أنه جاد في بيانه ودعوته لهم وتأكدوا إخلاصه
واقتناعه بأهمية ما يدعو إليه ، وحينئذ يوشك أن يسمعوا له ويطيعوا
إن لم يكن الجميع فالعقلاء منهم ، وإن اختلف اللسانان بأن قال
هذا خلاف ما يقوله ذاك كان هذا من المرشد موضع وقفه من
المسترشدين ومحل تفكير طويل منهم . وأقرب ما يكون منهم أن
يقعوا في حيرة ويقول كل منهم من أى اللسانين أسمع ، وبأى الفهمين
أقتدى وأعمل ، أبما أفهمه من لسان الحال أم بما أفهمه من لسان
المقال ، وقد يفترقون ؛ منهم من يميز الاقتداء بهذا والاقتداء
بذاك ، لأن هذا لسان الرجل وذاك لسانه — ومنهم من لا يميز
الاقتداء بهذا ولا بذاك فان الرجل يثبت وينفى في آن واحد ،
فإذا قال بلسانه هذا واجب فعله فافعلوه وقال بلسان حاله هو
ليس بواجب بأن كان هو تاركه — كان كاذباً ولا بد في أحد النقيضين

والأحد ليس بمتعين لا في قوله ولا فعله . وإذن هذا الأحد صادق بكل منهما . فلو خالف مخالف كلا من القول والفعل كان لا إثم عليه في نظر نفسه ، لأنه يخالف كاذباً وإن كان الواقع يكذب أحد النقيضين ، وقل هذا فيما لو قال بلسان مقاله هذا حرام فلا تفعلوه وقال بلسان حاله افعلوه بأن كان يفعله هو — ومنهم من يقول خذوا بقوله ودعوا فعله فيحترم لسان المقال ولا يحترم لسان الحال — ومنهم من يعكس ويقول أنا أتبع لسان الحال لأنه أقوى لأن الإنسان لا يفعل إلا ما يختاره ويراه حسناً ولا يحترم لسان المقال . ويشتهر هذا الارتباك إذا التزم اللسانان الاختلاف أو كان ذلك في الأعم الأغلب ، فإن الناس إذا رأوه هكذا لا يترددون في الحكم عليه بأنه لاعب ، فلا يكون له نصيب عندهم إلا أنهم يسقطونه من أنفسهم ويجعلونه أضحوكتهم التي يضحكون منها . ومثل هذا أحقر من أن يكون قدوة يقتدى الناس به في دينهم أو دنياهم . وقد سبق في الكلام على فرع الزهد وحده أن قلنا إن اختلاف القول والفعل فيه يضيع المرشد ، فكيف يكون الحال في المطرد أو الأغلب اختلاف لسانيه . هذا نقوله في أي مرشد من المرشدين العاديين المتبعين لحضرات أنبيائهم . أما إذا كان المرشد نبياً يدعى مع ادعائه النبوة أن كل قول أو فعل يصدر منه فهو تشريع إلهي يبلغه لأمته فهذا لا يختلف لسانه أبداً متى كان نبياً حقاً ، فإن اختلفا - ولو في جزئية واحدة - وأقر هو مقتضى

الاختلاف؛ بأن قال بلسان مقاله في شيء هو واجب الفعل؛ وقال بلسان حاله ليس بواجب؛ أو قال ذلك في حرام — كان هذا الاختلاف كافيا في بيان أنه كاذب في دعواه النبوة، ومصيب كل الاصابة من يعتقد من صميم قلبه أنه ليس بنبي، ولا حرج أبدا على من يقول ويعمل لاسقاطه ورفض اتباعه، بل ذلك واجب على كل عاقل، وإنما كان الأمر بهذه الشدة في حضرات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأن دعوى النبوة ليست بالأمر الهين السهل. وإنما هي دعوى في منتهى الضخامة والعظم ليس هناك دعوى أضخم ولا أعظم منها لأنها تتضمن أن من يدعيها رسول الله، أي عن الله يتكلم يقول لأمرته أن مولاي يقول لكم افعلوا أو اتركوا، وأي دعوى بشرية تقارب دعوى من يقول للناس أنا نائب عن رب العالمين وعنه أعبر، تصديق تصديق لله؛ وتكذيب تكذيب لله، وفي اتباعي سعادة الأبد، وفي مخالفتي والتخلف عن إجابة دعوتي شقاء الأبد، فلما كانت دعوى النبوة بهذه العظمة كان التخالف بين القول والفعل من مدعى النبوة بتلك الدرجة الكبرى التي تبرهن أوضح برهان على أنه مفتر في دعواه، الناس يعرفون حق المعرفة من هو رب العالمين علما وحكمة، فلا يخفى عليهم أبدا أنه تعالى إذا أرسل رسولا يكون هذا الرسول مختار ذلك العلم المحيط الذي لا تخفى عليه خافية لا فيما كان ولا فيما يكون — ومختار تلك الحكمة التي يستحيل

أن تضع شيئاً إلا في موضعه وإذا كان الناس يعلمون عن ربهم هذا فمن أبده البديهيّات عندهم أن مختارده لا يمكن أن يتناقض لسان حاله ومقاله، اذن كل رسول من رسل ربنا يجب على كل مؤمن أن يعتقد فيه أنه لا يجوز عليه أبداً أن يقول للناس يجب عليكم أن تفعلوا كذا ثم هو يتركه أو يحرم عليكم أن تفعلوا كذا ثم هو يفعله إلا إذا صرح هو باختصاصه بما خالف فيه، هذا يقال في كل رسول أرسله ربنا الحكيم العليم . وهو في صفوتهم وسيدهم وسيد كل العالمين أقوى وأمكن وأكمل . ومن تتبع أعمال الدين فيه صلى الله عليه وسلم عملاً عملاً تبين له هذه الحقيقة واضحة ظاهرة، اذ يراه صلى الله عليه وسلم في كل عمل إليه المنتهى - دعا صلى الله عليه وسلم إلى توحيد ربّه فمأدى على هذه الدعوة ولاقى في سبيلها ما لاقي من المتاعب والآلام وما بدأ منه عمل ما يخالف ما يدعو إليه بقوله حتى ساد ما بعث صلى الله عليه وسلم لأجله سيادة يشاهدها الموافق والمخالف لا يمتري فيها أي امتراء . ودعا إلى الجهاد في سبيل الله ليتيح للئام المشركين فرصة يلحقون بها الكرام في الإيمان بالله وحده . فان مثل أولئك المشركين كمثل الطفل الذي لا يعرف مصلحته وترغمه إليها إرغاماً . وكيف كان صلى الله عليه وسلم في هذا الجهاد . كان والله الجبل الذي تعصف حوله الأعاصير من كل جانب دون أن يشعر بها فضلا عن أن يهتز لها هزة ، أو كان كالصاعقة الماحقة التي لا يتعرض لها أحد إلا سحق سحقاً وكان كأمس الدابر . لا بيده هو صلى الله عليه وسلم وإنما هي أيدي

حزب الرحمن وجنده الذين اختارهم له ربه سبحانه وتعالى ، لا يشك القارى . أدنى شك فى انه ﷺ كان فى تلك الحروب المزعجة المرهبة الملاذ لأصحابه يلوذون به ويلتجئون إليه يحتمون بحضرتة إذا حى الوطيس واشتد البأس ، وهم والله كانوا الأبطال الذين مارأت الدنيا نظيرهم ولا من يدانيهم فى بسالتهم ، ولا زال ﷺ القائد المهيب الذى ان اتجه إلى صوب سبقه الرعب إلى حيث اتجه حتى لحق بالرفيق الأعلى وما وقف لسان حاله امام لسان مقالة لحظة يخالفه فيها ، ودعا إلى خشية ربه ومخافته عز وجل ، لأنه مع حلمه وعفوه وكرمه الذى لا حد له — له غضب لا يحتمل وعقاب تذهل لتصوره الألباب ، ينزله بمن يستخف بأمره ونهيه وهو السيد الخالق المنعم الذى لا شريك له فى نعمة من النعم ، فكان فى هذا الباب باب الرهبة من الله — الفريد الوحيد . ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان أعلم العالم به جل قدره وعلا جده ، وعلى قدر هذا العلم كانت مخافته ﷺ وخشيته لربه ، هذا مبلغ خوفه ﷺ من مولاه مع أنه أتقى الخلق وأقومهم بما يجب له سبحانه ، يدلك على قدر خشيته ﷺ لربه ما اتفق عليه البخارى ومسلم من أنه ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ﷺ فيقوم ويتردد فى الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله ، هذا الحديث يقول لنا أن الرجل كلما كان أعرف بالله عز وجل كلما كان أشد خوفا منه ، فهذا حضرة مولانا

ونبينا محمد ﷺ وهو صفوة الخلق يصل به الخوف من ربه إلى درجة لا يستطيع معها الجلوس ، ومن شدة هذا الخوف يتغير وجهه تغيرا يدركه الناظر اليه فيفهم ان تردده في الحجرة تارة ودخوله فيها وخروجه منها تارة أخرى — انما كان بدافع قوى من ذلك الخوف ، وأى حادث فى الكون أحدث عنده كل هذا ، هو فقط تغير فى الهواء ليس بمعتاد وهبوب لريح شديدة ، هذا الذى نراه اليوم فلا نلتفت له ولا نكثر به هو الذى كان يفعل به ﷺ ما ذكرنا ، وماذا كان يخشاه ﷺ من ذلك الهواء ، كان يخشى أن يكون مقدمة عذاب سماوى ينزل بالناس وهو ﷺ موجود ، والذى يظهر لى أنه ﷺ كان من شدة ما ينزل به من الخوف يغيب عنه أن وجوده أمان من نزول العذاب ، كما يقول تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) هذا خوفه ﷺ فى وقت لم تر الدنيا نظيره ولا قريبا منه فى تقوى الله ولزوم حدوده بوجوده ﷺ ووجود أصحابه رضى الله عنهم الذين كان بهم من بركاته ﷺ الشئ الكثير ، فكانوا به فى الذروة من الدين بين جميع الأمم ، وإذا كان ذلك خوفه ﷺ وهو سيد الخلق وأصحابه كانوا خير الأمم — فليقل لى القارىء وينصف كيف ينبغى أن يكون خوفنا نحن اليوم من عذاب الله وقد تركنا كل ما أمرنا به واقتحمنا كل ما نهينا عنه بما فى ذلك والله أصل الدين وأساسه وهو

الآيمان ، فان المدنية التي عبقناها في هذا الزمان وهمنا بها
هياما لا تكون مدنية حقا إلا إذا كنا إبا حين لا نحرم ولا
تحلل ولا نقف عند حد في عقائدنا وأعمالنا ، لست أقول إننا
جميعا بالحال المذكور ، وإنما فينا كثير ذلك حالهم ، ولا
يزالون يزدادون ، فان تيار المدنية يشتد يوما فيوما ولا رادع
ولا زاجر ، وإني أقول ان هذا الحال إذا دام على ما نرى
فسنصبح بعد زمن ليس فينا مؤمن ، ومما يشف عن مبلغ خوفه
ﷺ من مولاه أنه كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز
كأزيز المرجل . رواه أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي ،
وهذا معناه أنه ﷺ وهو في الصلاة أفضل عبادة يتقرب بها
العبد إلى ربه يغاب عليه الخوف غلبة يهيج لها قلبه هيجانا يجعله
يغلي كما يغلي القدر في حالة فوران ما به من ماء ، لا يغلي قلبه
ذلك الغليان في خفاء ، بل يظهر ذلك ويرتفع صوته من شدته
لدرجة أن يسمعه من حوله ﷺ ؛ لا يستغرب هذا حضرة
القارى . فانا نتكلم عن أفضل عبد برأه الله من أول الخليقة إلى
أن ينتهى هذا العلم الدينى ، وروى ابن عدى والبيهقى في
الشعب أنه ﷺ قرىء عنده إن ادينا أنكالا وجميها وطعاما
ذا غصة وعذابا ألما فصعق) ، لماذا يصعق ﷺ عند قراءة هذه
الآية . الجواب أنه يصعق فزعاً مما بها من وعيد ، سيد العالمين
يا عباد الله يصعق ويغشى عليه وأمثالنا الغارقون لآذانهم في

حماة الرذائل لا يصعقون بل ولا يكون بل ولا يفكرون في مصيرهم ، بل ولا يكثرثون بهذا المصير ، ولا يهمهم أجنة كان أم نارا ، ولكن لا غرابة فانه ﷺ سيد أرباب القلوب الحية ، أما موتى القلوب كخضراتنا فكيف يحسون بوعيد مهما كان عظيما وشديدا ، إنا نروى مثل ما تقدم عنه ﷺ ليكون عندنا صورة صغرى من هيئته ﷺ وخشيته لربه ، وهو فى غنى عن مثل هذا بما كان عاياه فى معاملته لمولاه سبحانه ؛ تلك المعاملة التى كل فرد من أفرادها أكبر برهان على مالهيه ﷺ من منتهى الاجلال والتوقير لهذا المولى العظيم جل شأنه ، ودعا ﷺ إلى الكرم وسماحة النفس ورغب فيه ثم رغب وكان هو ﷺ فى ذلك البحر الذى لا ساحل له ، فقد روى البخارى ومسلم عن سيدنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء قط فقال لا ، وإني أظن القصارى يعجب لهذا ، لا تعجب يا أخى وتذكر مبلغ قدر الدنيا عنده ﷺ يسهل عليك فهم هذا الوصف ، نعم ليس بغريب أبدا أن لا يرد ﷺ سائلا يسأل المال الذى أبى أن يكون له منه خزائن الأرض بل وأبى أن تكون له جبال الدنيا كلها ذهبا ، بل ودعا مولاه وابتهل إليه أن يجعل رزقه وزق آله قرتا فقط ، وإذن كيف تعد غريبا أن يعطى كل ما سئل عنه من هذا المال الذى ينفر منها نفورا كما سبق بيانه ، وروى مسلم أن سيدنا أنس

رضي الله عنه قال ما سئل رسول الله ﷺ شيئا إلا أعطاه فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال يا قوم أسلبوا فان محمدا يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، روى أصحاب السير أن هذا الرجل لما أخذ ما أخذ قال أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي ، إن المروى في هذا الباب باب كرمه ﷺ شيء عظيم ولكني لا أعد شيئا من الدنيا عظيما عنده ﷺ ، كما أني لا أعد هذا الكرم - وهو من أجل مكارم الأخلاق - من الصفات التي تحتاج إلى دندنة كثيرة فيه ﷺ بعد أن سمعت قدر هذه الأموال عنده عليه الصلاة والسلام ، وإذن لا يشتد عجبك ، إذا سمعت أنه ﷺ سئل ولم يكن عنده ما يعطيه للسائل فأمره أن يستدين عليه ﷺ حتى إذا جاءه مال أدى ذلك الدين ، أنا اذ كر البخاري ومسلم في سند ما أذكر في هذا الباب وما يروياناه أعلى درجات الصحة وأعالج القاريء أن لا يعد ما نروى غريبا - لأنني أعرف أنا في زمن ليس بمستعد لأن يقبل ما نروى بسهولة ، فان هذا المال فعل بالناس ما لا يتصوره العقل وأصبح عندهم المعبود الوحيد الذي إن أشار لا يرد له إشارة وإن حكم نفذ حكمه وإن غضب الآباء والأمهات والأخوة والأخوات ، بل وإن غضب والله رب السموات ، وماذا أقول في شرح ما فعل هذا المال وقد أصبحنا نسمع أن المؤمن يقتل أعز الناس عليه أباه ومن إليه لا جل تافه من هذا المال ، وهل ما تموج به الدنيا اليوم من أنواع الفتن إلا من ناحية هذا المال

وإني لا أتربق قريبا كما يتربق غيري من العقلاء حربا شعواء
تفشب بين البشر يندلع لسان لهبها وينتشر ثم ينتشر حتى لا تبقى
ناحية من نواحي الدنيا إلا وصلت إليها وأحرق
منها ما أحرق من الأرواح والأموال ، ان الناس يقولون ان
الدنيا بالمال تعمروا لكنني أقول انها لأجل المال ستخرب وتخرّب
المال في النفوس كما نصف، لهذا أنا ألح على القارىء أن لا يعد
غريبا ما يراه من كرم سيد الكرماء صلى الله عليه وسلم، ولهذا لا أكثر
من رواية آثار هذا الكرم الفريد الذي لم تر الدنيا في البشر
ما يماثله بل ولا ما يدانيه ، ليعذرني القارىء الكريم إذا قلت أنا
لا أدري وعاجز كل العجز عن أن أدري كيف كانت تكون
حالنا مع هذا المال إذا كان حضرة نبينا صلى الله عليه وسلم له مظهر
دنيوى ، أقول هذا والذي يدعوني إلى قوله ما نحن عليه من حب
الدنيا والشغل بها شغلا أنسانا كل شيء حتى ربنا ونبينا وديننا
هذا ما نحن عليه ومع هذا الذى نحن عليه نعلم حق العلم ان
الدنيا عند إمامنا وقدوتنا ونبينا كانت بالدرجة التى شرحناها، ودعا
صلى الله عليه وسلم إلى الاجتهاد فى طاعة الخالق الرازق سبحانه وكان هو صلى الله عليه وسلم
فى ذلك بالدرجة التى لا تطاق ، فقد شهدت عليه زوجه الصديقة رضى
الله عنها - وأعدل الشهادات شهادات الزوجات لأنهن أعلم بما عليه
أزواجهن - إذ تقول عنه صلى الله عليه وسلم إنه كان يقوم من الليل حتى
تتفطر قدماه ، فقلت له لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله

لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: أفلا أحب أن أكون عبداً
شكوراً ، رواه البخارى ومسلم ، هل يسمع القارىء (حتى
تفطر أى تشفق قدماء) من طول قيامه فى الصلاة ليلاً والناس
نيام أو مشغولون بمشاغل بهيمية ، ولم لا تفطر قدماء ﷺ
وابن مسعود رضى الله عنه — وهو هو فضلاً ونبلاً — يقول
(صليت مع النبي ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء قيل وما
هممت به قال هممت أن أجلس وأدعه) رواه البخارى ومسلم أيضاً ،
ابن مسعود عالم الأمة الذى يخبر عنه ﷺ ان قدمه فى الميزان
أثقل من أحد — لا يهتم بذلك الذى هم به من قليل ، بل يجب أن
نفهم انه كثير وكثير ، لهذا حصل تقدمه ﷺ ما حصل من
تفطر كما تخبر أمنا الجليلة رضى الله عنها ، الصلاة كانت قرّة
عينه ﷺ وكانت لذته التى يحن اليها ويتأذى بها ، ومن
لا يطيل ثم لا يطيل فى شيء هذا حاله ، ثم هو ﷺ سيد
المجاهدين فى طاعة ربه ، ومن يستكثر ما ذكرنا على سيده
المجاهدين ، أنا أعجب لنفسى الآن وأنا أحاول أن أثبت
للقارىء أنه ﷺ ما كان يدعو إلى شيء إلا ويعمل به ، بل
بهذا أرانى فى موقف لا يعجب العقل ، ولا يتمتع القارىء
من هذا التعبير فان العقل يقول إنه ﷺ يدعو الناس للعمل
بما يدعو اليه فاذا تأخر هو عن ذلك العمل فقد فتح باب
الاعراض عن سماع دعوته واتباعها ، إذن لا بد أن يبدأ هو

فيعمل بكل دينه الذي يكلف الناس أن يدينوا به حتى يتبعوه ،
ويقول العقل من ناحية أخرى إن له ﷺ أعداء يترصدون
له عثرة من هذا القبيل ، فإذا كانت ورأوا بأعينهم أنه ﷺ
يتساهل في ترك ما يأمر بفعله ولو مرة واحدة لكانوا طاروا
بها طيرانا وشنعوا وملأوا الأرض طعنا وتشكيكا قائلين كيف
يكون نبيا ويبدأ هو فيعصى ما جاء به ، إذن لا لوم علينا في
هذا العصيان ، وبذلك كانوا يقيمون الحجة عليه وعلى تابعيه
بأنه ليس نبيا ، وبهذا كانوا يكفون الحروب والكروب ،
النبى ﷺ أخبر أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، لا تقل
يتممها تشريعا فقط ، إن هذا غلط شنيع ، بل وليتممها عملا
بها وتخلقها بكل أفرادها فردا فردا ، ولذلك قالت أمنا
الجليلة السيدة عائشة رضى الله عنها (كان خلقه القرآن) تفسر
بذلك (الخلق العظيم) في قوله تعالى بخاطبه (وإذك لعلى خلق
عظيم) ، ومعنى أن القرآن خلقه انه كان يتخلق بكل ما يشير
اليه فعلا وتركما يمشى معه حيث يمشى ويقف حيث يقف ،
ليفهم هذا حضرة القارىء ولا يكلفنا أن نتبع كل أفراد
ما جاء به ﷺ ونذكر له حاله ﷺ مع كل فرد فرد منه فعلا أو
تركا فان ذلك يطول جدا ويميل ، وإني أحب أن يفهم حضرة
القارىء المحترم أن كل ما قدمته من الكلام فيه ﷺ جريت
فيه على رعاية الأسباب والمسببات فذكرت أن عمله وعبوديته

فوق كل عمل وفوق كل عبودية ، وهذه مقدمة تنتج أنه كان خير العبيد العاملين في طاعة ربهم ، وبعد هذا أرجوا أن لا يفهم أنه ﷺ سيد العالمين لتلك الأعمال وتلك الأخلاق فقط ، والذي يجب أن تفهمه مع ذلك أنه إنما كان بتلك الدرجة لأن ربه اصطفاه واختاره لها كما يشير إليه قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ولذلك يقول ﷺ في الحديث السابق (أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا) وأنت تعلم أن الشكر إنما يكون لنعمة تقدمت ، ومعنى هذا أن موقفه ﷺ في كل ما تسمع عنه من أخلاق وأعمال فوق ما هو معهود في البشر سموا ونبلا — موقف عبد رأى عناية ربه به فوق كل عناية فاشتغل بشكره تعالى على قدره فكان بذلك سيد العابدين وسيد الشاكرين لأن قدره جعله ربه فوق كل قدر ؛ وبهذا حفظ مركزه كما يعبر الناس وبرهن بكل أحواله على أن اختيار ربه اختيار العليم الحكيم حقا ، (بقيت كلمتان) لابد من مواجهة الأمة بهما وأرجو أن تلفت لهما وتقدرهما قدرهما فتسارع إلى العمل بهما ، أما الكلمة الأولى فمما شاع اليوم وكثر ثم كثر من المتكلمين فيه ﷺ ، وهو أن أحدهم إذا أراد أن يذكر اسمه الكريم ﷺ ذكره مجردا عن أى كلمة تصحبه تشير إلى أى تعظيم ، وليس ذلك هو الأدب الذى أدبنا به ربه وخالقه معه ﷺ ، وإن شئت أن ترى شيئا من ذلك الطراز الفريد فهذا القرآن ينادى المؤمنين به ﷺ

بما يجب من الأدب في حقه ﷺ ويخيفهم من أحباط الأعمال ان لم يراعوه، فيقول (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) ، فحرم علينا رفع صوتنا فوق صوته ﷺ — وأن لا مخاطبة في كلامنا معه كما يخاطب بعضنا بعضا في جهر وعدم اكتراث ، وجعل خلاف ذلك يخشى أن يكون كالردة في احباط العمل ، روى البخارى ومسلم وأحمد وابن جرير واللفظ له ان الآية السابقة لما نزلت قعد ثابت بن قيس رضى الله عنه في الطريق يبكى فر به عاصم بن عدى من بنى العجلان فقال ما يبكيك يا ثابت قال هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت رفيع الصوت قال فمضى عاصم بن عدى رضى الله عنه الى رسول الله ﷺ قال وغلبه (أى قيس) البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبى بن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرشى فشدى على الضبة بمسماه فضربته بمسماه حتى اذا خرج عطفه وقال لا أخرج حتى يتوفانى الله أو يرضى عنى رسول الله ﷺ . قال وأتى عاصم رضى الله عنه رسول الله ﷺ فأخبره خبره . قال اذهب فادعه لى فجاء عاصم رضى الله عنه الى المسكان فلم يجده فجاء الى أهله فوجده فى بيت الفرش فقال له ان رسول الله ﷺ يدعوك فقال اكسر الضبة قال فخرجا فأتيا النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ ما يبكيك يا ثابت فقال رضى

الله عنه أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في ،
فقال له النبي ﷺ أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيدا وتدخل
الجنة ، قال رضيت بشري الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي
أبدا على صوت رسول الله ﷺ ، وسمع سيدنا عمر رضي الله
عنه رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قدار تفعت أصواتهما فجاء
فقال أتدريان أين أنتما، ثم قال من أين أنتما، قال من أهل الطائف،
قال لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا ، ليفكر القارىء
طويلا في قول سيدنا عمر للرجلين (أتدريان أين أنتما) ، وهو
رضي الله عنه يقرر بهذه الكلمة أن رسول الله ﷺ يجب
أن يعامل بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى بما كان يعامل به وهو
في حياة الدنيا ، وانظر كيف يرى رضي الله عنه أن رفع
الصوت بمسجده ﷺ فضلا عن أن يكون بين يديه - جزاؤه
الضرب الموجه ، وهو والله جدير بذلك ، فان ربنا هددنا باحباط
العمل إن كان ذلك الرفع كما قلنا ، وحكم الله على قوم نادو ﷺ من وراء
حجراته ﷺ ليخرج إليهم - بأن أكثرهم لا يعقلون - وبأن
الواجب عليهم كان أن يصبروا حتى يخرج هو ﷺ من حجراته
التي هو فيها من تلقاء نفسه دون أن يكلفه مكلف بالخروج ،
وفي هذا قال تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات
أكثرهم لا يعقلون ولو انهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) ،
هذا أذكره - لا لأنه في موضوع ذكر الاسم مجردا ، بل ليعرف

المؤمنون قدره ﷺ عند ربه . وكيف يراعى خاطره حتى لا يرضى أن يخرج عن اختياره في إجابة قوم يريدون لقاءه ﷺ . ويسلب العقل عن أكثر من يريدونه على ذلك ، نعم والله هذا شيء فوق أن يقال فيه كثير وعظيم . أما مسألة ذكر الاسم كما يذكره حضرات معاصرينا فلم يتركها ربنا بل نص عليها بخصوصها في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) . أى إذا ناديتموه فلا تقولوا يا محمد كما ينادى أحدكم أخاه بل بجلوه وعظموه في ندائكم فقولوا مثلا يا رسول الله يا نبي الله يا خليل الله يا حبيب الله يا سيد الوجود يا رحمة العالمين وما إلى ذلك من ألقاب الاجلال والاكبار . فان ذلك هو اللائق بذلك المركز الاسمي . وما يفعله حضرات الاخوان — من ذلك القبيل المنهى عنه فانه تسمية له باسمه المجرد وان لم يكن فيه نداء ، فان ذلك النداء لم يمنع إلا لانه ينادى الاسم فقط . هذا أدب الله الذى أدبنا به مع رسوله ﷺ إذا نحن ذكرنا اسمه في نداء أو فى خبر ، ونقل ابن حجر فى الإصابة عن رجل كان استوجر لقتل النبي ﷺ أنه قال من كلام طويل (فقلت لصبي أين هو محمد القرشى الذى قدم عليكم فنظر الى متكرها وقال ويلك ثكلتك أمك لولا أنك غريب جاهل لأمرت بقتلك ، ألا تقول أين رسول الله ﷺ ؟ هو ذاك عند النخلة العوجاء عند أصحابه فأتته فانك

إذا رأيت أكرته وشهدت بتصديقه وعلمت أنك لم تر قبله
مثله)، وهذا الـ كلام من ذلك الصبي المسلم يفهمنا أن ذكره
ﷺ باسمه مجردا كان بينهم من العظام التي لا تخفى حتى على
الصبيان، وكلام الصبي يفهم أنه عرف الكفر في ذلك السائل؛
وتمام القصة يخبر أن ذلك الرجل أسلم

ولا يعجبني بعد هذا ما يقوله حضرات المعاصرين بأن المرء
إذا اشتهر يكفي أن يذكرا اسمه فقط. هذا كلام يرجع إلى الرأي
ولا قيمة للرأي مع النص، فليعلموا هذا بآرك الله فيهم ووفقنا
وابياهم للآدب مع سيد خلقه ﷺ، على أنآ لو أخذنا برأيهم ذلك
كان من العيب في نظرهم أن ننادى أحدهم باسمه مع إضافة شيء من
الآجلال إذا كان من المشاهير، وهل يرضون هذا، أن الذي أعرفه
أن أحدهم إن كان (باشا) أو من (البكوات) أو الأفندية نظر
نظر الغضب الشديد لمن لا يناديه بيا صاحب السعادة أو يا صاحب
الآزة أو يا أفندي، بل علمهم جميعا يرون من القريب من الكفر
أن ينادى واحد ملكا باسمه فقط دون أن يقول يا صاحب
الآلالة وما ما ثله. وإذا كانوا لا يرضون لأنفسهم الاسم
مجردا - وإن كانوا مشاهير- فلماذا يرضون ذلك لسيد العظماء
ﷺ. ولعل ذلك من الواضح، وأما الكلمة الثانية فما رأيت
من كثير من الكتاب اليوم - من أنكار أن له صلى الله عليه وسلم
أى معجزة - ورمى الأمة المحمدية بالكذب في إسناد

معجزات له حتى تعدوا ذلك القدر إلى انهام هذه الامة بأن
الذى دعاها إلى ذلك الكذب هو ارادتها أن تلحق نبيها ﷺ
بنحو سيدنا موسى وسيدنا عيسى صلوات الله وسلامه عليهما
في أن له معجزات مثلهما، وهذا أولا يشير من طرف خفي إلى أن
حضرات أولئك الكتاب يفضلونهما صلى الله عليهما وسلم -
عليه صلى الله عليه وسلم، والاجماع على خلاف هذا . ويصرح
ثانيا بتكذيب كل ما جاء من الكتاب والسنة يسند اليه ﷺ
شيأ من هذه المعجزات ؛ وإني أوقن أنهم لا يرضون لانفسهم
لا هذا ولا ذاك ، والذي أفهمه في حضراتهم أنهم فقط لم
يطلعوا على ماله ﷺ من معجزات ، أو نظروا في كتب
المسيحيين أو الموسويين فرأوا كلمة كهذه قالها أحد متعصي
هؤلاء أو أوائك فعلقت بأنفسهم تلك الكلمة ورددوها على أنها
حقيقة من الحقائق ، اعتذر عنهم بهذا ولا أستطيع ان اتفوه بأن
رجلا يدعى أنه مسلم ثم ينكر انكارا باتا أنه ﷺ له معجزة ،
ولو أردنا أن نبين لهم ماصح بلا أى تكير من معجزاته ﷺ
لطال الكلام واحتاج لافراده بالتأليف ، ولكن لا بأس من
ذكر بعض المعجزات التي لا شك فيها ليرى فقط أن دعواهم
ليست بصحيحة فيعدلوا عنها ويستدركوا ما فرط منهم في
كتاباتهم التي صدرت عنهم فيما مضى ، هذا القرآن الذي بين
أيدينا الآن - معجزته ﷺ التي واجهها الامة حينما ادعى النبوة

وطالبهم أن يأتوا بقرآن مثله وهم إذ ذاك أفصح وأبلغ من على ظهر الارض بل من وجد على ظهرها فعجزوا عن ذلك ، فطالبهم أن يأتوا بما يساوى عشر سور منه فعجزوا ، فطالبهم ان يأتوا بمثل سورة واحدة من سوره فعجزوا ، وعدلوا عن هذا الباب إلى أن يتلقوا في صدورهم السيوف والرماح والنبال المهلكة ، ولو أمكنهم أن يعارضوا لعارضوا وفروا من الموت فرارا ، إذن هو معجزة يعجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ومن أنكر هذا فقد أنكر نفس القرآن ، وفي نفس القرآن معجزات قال بعض الأئمة إنها تزيد عن ستين ألف معجزة ،

وأخذ ﷺ كفا من تراب فى غزوة حنين ورمى به عيون المشركين فما من عين من عيونهم إلا وقد امتلأت من ذلك القدر الذى يملأ الكف فقط ثم كانت الهزيمة لأولئك الأعداء بعد أن كان النصر لهم ، روى هذا الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث ، وقد ذكر القرآن رمية كهذه كانت بغزوة بدر إذ قال (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ورويا أيضا هما وغيرهما ان أهل مكة سألو ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين ، والقرآن يقول فى هذه المعجزة (اقزبت الساعة وانشق القمر)

وروى البخارى ومسلم - انه ﷺ كان يرى من خلقه كما كان

يرى من أمامه - وأن فرس سيدنا سراقه ساخت أرجلها في
 لارض إلى بطنها لما دعا صلى الله عليه وسلم عليه بقوله اللهم اكفناهم بما شئت - وانها
 خلصت لما دعا له صلى الله عليه وسلم - وان يبادر سيدنا جابر أدى منها الديون
 كلها وكانت لم تنقص ثمرة وكان يتمنى أن يؤدي الله عنه مائة
 ولا يرجع لآخواته بثمره واحدة، حصل ذلك بدعائه صلى الله عليه وسلم - وأن
 الماء نبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم حتى كان يفور كأمشال العيون
 وشرب وتوضأ من ذلك الف وخمسمائة ولو كانوا مائة ألف
 لكفاهم . وان الذي أخبره بالجن ليلة استمعوه شجرة - وأنه
 أخبر عن رجل كان في الجهاد لا يدع شاة ولا فاذة من الكفار
 أنه من أهل النار، فتبين كما قال صلى الله عليه وسلم فإنه قتل نفسه - وأنه صلى الله عليه وسلم
 بصق بعين سيدنا علي لما دعاه لفتح خيبر وكان أرمد يقاد فذهب
 رمده حتى كأنه لم يكن به وجع - وأنه أسرى به في بعض ليلة من
 المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى حيث تجاوز
 السموات السبع بل وصل إلى مكان سمع فيه صريف الأقلام
 ورأى ليلتها الجنة والنار ورأى من الآيات الكبرى ما رأى ،
 والاسراء نطق به القرآن وكذلك المعراج - وأنه كان ممنوعا
 من الناس لا يستطيعون قتله وهو أمامهم، ولقد قال سيدنا أبو بكر
 يوم كنا بالغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، فقال له صلى الله عليه وسلم
 ما بالك باثنين الله ثالثهما ، ومن هذا ما رواه الترمذي والحاكم
 والبيهقي وأبو نعيم من أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل قيل له أنه كان يريد

أن يقتلك (لن ترأع لن ترأع) لو أردت ذلك لم يسألك الله على
ومنه ما رواه ابن أبي حاتم والبخاري من أن امرأة أبي لهب لما
نزلت سورتها وزوجها ذهبت إليه عليه السلام ويدها حجر تريد
إيذاه به فلم تره وهو بين يديها - وروى أيضا أن صدره عليه السلام
شق الملائكة - وحصل هذا مرات - ولأموه دون
أن يشعر بأثر لهذه العملية العظيمة ، وروى البخاري أنه
عليه السلام كان يخطب يوم الجمعة مستندا إلى جذع نخل فلما صنع
له المنبر وانتقل إليه جعل ذلك الجذع يصيح صياح الصبي
والناس يسمعون فضمه عليه السلام فجعل ين أنين الصبي الذي
يسكن - وأن الطعام سبغ في يده عليه السلام ويد الصحابة الذين
كانوا يأكلون معه عليه السلام - وأنه مسح رجل سيدنا عبد الله ابن
عتيك - وكانت مكسورة - فأنجبر الكسر وكأنه لم يشكها قط ،
وروى مسلم أن أبا جهل أراد يوماً إيذاه عليه السلام فلما دنا منه
نكص على عقبيه يتقى يديه ، ولما سئل عن ذلك قال أن يني
وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة ، وفي ذلك قال عليه السلام
لودنا مني لا تختطفه الملائكة عضوا عضوا ، وهو من باب منعه
عليه السلام - وأنه أراد أن يقضى حاجة الإنسان فلم يجد ما يستتر به
فدعا شجرتين فانتقلتا من مكانهما والتأمتا فجلس وراءهما يقضى
حاجته ثم رجعتا لمكانهما - - وأنه عليه السلام دعا في الطعام اليسير
فكثر حتى أكل الجيش منه كله وملأوا أو عيتهم وكان ذلك

في جماعة حصلت بغزوة تبوك. وأن ثمانين أكلوا من طعام أبي طلحة
الذي كان مهباله عليه السلام وحده ، وبعد الانتهاء قالت زوجته لولا أني
رأيتهم يأكلون لقلت ما نقص من طعامي شيء ، وإنا نكتفي بما
ذكرنا من معجزاته عليه السلام ، ومن أراد أن يستكثر من ذلك فليرجع
إلى الكتب المؤلفة في هذا ؛ فإنه يرى هناك العجائب والغرائب ،
وإنا نقول بأعلى صوتنا إن ما قدمنا ثابت قطعاً ، من أنكره وأمثاله فإنما
ينكر سنة رسول الله عليه السلام وينكر القرآن الذي أثبتناه واحترمها بقوله
(لتبين للناس ما نزل إليهم) وبقوله (وما آتاكم الرسول فخذوه وما
نهاكم عنه فانتهوا) ، وهو في الوقت نفسه يسقط أمة بأسرها هي
خير الأمم ويقضى عليها بالكذب فلا يحترم رواية تلك المعجزات
ولا من أقروها ورووها عنهم من عهدهم إلى يوم القيامة ، هذا
موقف أولئك الذين ينكرون معجزات سيد الوجود عليه السلام
وهو موقف شذوذ وعدم مبالاة بالوقوف أمام الاسلام وأهله
موقف المعاند المستخف ، وبعد فانا نلتفت عن هؤلاء إلى جماعة
المؤمنين قائلين لهم : ان الحب الصادق هو ما حرض على طاعة
المحبوب ، ومن ادعى المحبة ثم وقف من المحبوب موقف المخالف
فقد برهن على انه كاذب في دعوى المحبة ، وبناء على هذا أقول
أنا أريد من رآوا كلامي السابق أن يقولوا لي بلسان فعلمهم انا
نحب سيد العالمين ، وذلك بأن يتحروا أخلاقه الكريمة فيخلقوا
بها ما استطاعوا وأفعاله النبيلة فيفعلوا منها ما تيسر لهم وأمكنهم

حريصين الحرص كله ان لا يكونوا إلا في الطريق المحمدية وإلا
كانوا مع من قال فيهم القائل

تعصى الاله وأنت تظهر حبه هذا العمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
وإني أكفك جواد القلم عن الاندفاع فى هذا المضمار
الذى تنتهى الدنيا ولا تدرك له غاية ، وأرجو أن يكون القارىء
باطلاعه على ما قدمنا غداً متحققاً بقوله ﷺ (لا يؤمن أحدكم
حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) رواه
الشيخان وغيرهما

أما الحقير الذليل مصطفى ابوسيف الحمأى فلا يسعه - بعد أن
اجترأ وكتب ما كتب - إلا أن يتقدم إلى سيد الخلق ﷺ معتذراً
عما فرط منه من جرأة على مقامه الأسمى ، ذلك المقام الذى لم
يخلق ربنا مةً مما يقاربه ، نعم جدير أنا والله أن أبالغ فى الاعتذار
لسيدى صفوة العالمين ﷺ ، ذلك أنى أعمش البصيرة ضعيفها
وكيف يصل نور ضئيل كهذا إلى ذلك المقام الأرفع حتى
يتناوله بالوصف المناسب والتقدير الصحيح ، وماذا يقوله
لسانى الكليل أو يكتبه قلبى الهزيل الأعرج فىمن يخاطبه ربه
وخالقه بقوله الحكيم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لذلك
لا يسعنى إلا أن أنتهى بقولى

عفوا يا أسمى الخلق ففى حى لكم أسمى الشفعا

اللهم إني أحب هذه الرحمة التي أرسلتها للعالمين ، اللهم لا
 تحل بيني وبينها لا في الدنيا ولا في الآخرة ، إني أسأل كرمًا كل
 كرم في الوجود من فيضه ، ورحمة بها يتراحم كل ماعداها ،
 وودادًا ثولاه ما كان وداد ، اللهم استجب لي يا كريم يا رحيم
 يا ودود ، وإن لم أكن أهلاً لأن أجاب فأنت أهل لأن تجيب ،
 ياربني إني أشهدك أني أشهد من صميم قلبي أنك وحدك رب
 العالمين — وأن مولاي محمد بن عبد الله عبدك وخاتم رسلك
 وأن ما جاء به دينك الحق ووحيك الذي به حياة القلوب ، سبحان
 ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله
 رب العالمين ؟

فهرس البنابيع

ص	ص
٣٦ شجاعته ﷺ	٢ مقدمة
٣٩ صدقه ﷺ	٦ ما ذا يفهم لقب رسول الله
٤٩ قوة بيانه صلى الله عليه وسلم	١١ أثر دعوته ﷺ
٥٥ تواضعه صلى الله عليه وسلم	٢٤ ثباته على مبدئه ﷺ
٦٣ زهده صلى الله عليه وسلم	٢٦ علمه ﷺ
٧٦ عمله بقوله ﷺ	٣٠ حلمه ﷺ